الرسالة والرسول

تأليف

الدكتور أكرم ضياء العمري



الرِّسَالَةُ وَالرَّسُول

تأليف

الدكتور أكرم ضياء العمري


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

عالم الغيب

إن الايمـان بـالغيب يعني أن المؤمن لا يقتصر وعيـه عـلى العـالم الفيـزيـائي المشهـود، بل يعتقـد بوجـود عالم آخـر غير مـرئي هو عـالم الغيب، وإليه يشـير اصطلاح: «ما وراء الطبيعة» أو «الميتـافيزيقيـا» لكن الاصطلاح الفلسفي يـظل غـامضاً ومضـطرباً أمـام وضوح الاصـطلاح الديني، فـالمسلم يعتقد بـوجود الله خالق الكون والحياة، وأنه يرسل رسلاً يوحي إليهم بالرسالات التي تنظم حيـاة الإنسان على الأرض، وتحدد القيم الأخلاقية المطلقة، وتجعل أتباعها يـدينون لله بـالعبوديـة، والعبوديـة لله لا تعني شل إرادة الإنسـان ولا تقييـد طـاقـاتـه، ولا إذلاله، بل هي منطلق لتحرره من عبـادة المخلوقات إذ (لا إلـه إلا الله)، وهي تبصير له وتفتيح لوعيه على حقيقته وحقيقة الوجود، فلا يتضاءل فيحس بأنه ذرة في فلاة، لا أهمية لها ولا غايـة ولا يستعلي فيحس أنـه «الإله الخـالق» كما يعـبر الماركسيون والماديون في القرن العشرين، وهم يحسبون أنهم بنفي «الله» وإثبـات الخلق للإنسان يعلون من قدر الانسان ويحررونه، ويجعلونه مصدر القيم النسبية المتغيرة في الزمـان والمكان تبعـاً لرقي الإنسـان وتغيره المستمـر. وبذلـك يكلون الانسان إلى نفسه وطـاقاتـه، ويحرمـونه من رعـاية الله ونـور رسالاتـه، ويكبتون روحه عندما يمنعونها من الاتصال بخالقها ويحصرونه في عالم ضيق مظلم هو عالم المادة. وقد وصف الله تعالى المؤمنين المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب، فقـال تعالى: ﴿ألم * ذلك الـكتـاب لا ريـب فيــه هــدى لـلمتـقــين * الــذين يـؤمنــون بالغيب. . .﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية ١ ـ ٢.

وعالم الغيب الذي يؤمن به المتقون يشتمل على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى. ولا يسمى مؤمناً إلا من آمن بهذه العقيدة كاملة، فلا يسعه أن يؤمن ببعضها وينكر بعضها الآخر.

والاسلام هو الدين الخاتم لرسالات الله تعالى الى الإنسان، وهو الرسالة الخالدة مدى الحياة، وهو يهدف إلى تبصير الانسان بخالقه وبذاته وبعالمه وبمصيره، في حين تسعى الأدبيات الإنسانية من فلسفة وعلم اجتماع وانثروبولوجي ونفس وسياسة واقتصاد وأدب شعري ونثري ونثر قصصي ومسرحي إلى تبصير الانسان بذاته وعالمه فقط إلّا تلك الأدبيات المتأثرة بالفكر الديني والمستوحية لرسالات الله فإنها تبصر الانسان بالخالق وبالمصير.

وفي عالم اليوم تركّز الأدبيات الإنسانية على ذات الإنسان وعالمه المادي، وتهمل الى حد كبير قضية المصير والعلاقة مع الخالق، وهو اتجاه محكوم بالفلسفات المادية التي لا تؤمن إلا بالمادة والمحسوس، والتي تنكر عالم الغيب وتتنكر له، ولا ترى في المصير إلا العودة الى تراب الأرض عودة نهائية ليس وراءها بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

وهكذا عاش إنسان القرن العشرين داخل نفسه وداخل حدود العالم المادي الضيقة لا يضيء قبسُ الإيمان إلّا نفوساً قليلة، ولا يعيش تجارب الروح إلّا عددٌ محدود، ولا يتطلع الى الله وما عنده من رحمة ورضوان في الدنيا والآخرة إلّا صفوةٌ من الخلق، وقليل ما هم.

إنَّ الناظر في كتاب الله تعالى وسنّة الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك أن الاسلام أعطى مساحة واسعة من نصوصه للتعريف بالخالق عزَّ وجلَّ وما يحبه ويرضاه، وما يبغضه وينهى عنه، وبين الأمر والنهي الإلهيين تقع سياسات المجتمع والثروة، فتتحدد خصائص الدولة وقيم الاقتصاد وسنة الاجتماع، وتتضح علاقة الإنسان بالإنسان، والرجل بالمرأة. وهنا تبرز تفصيلات كثيرة دقيقة وجليلة لتحدد العلاقات الاجتماعية ضمن أحكام الشريعة التي تمثل إرادة الله تعالى في شؤون خلقه.

ولكن ما الذي يدعو الانسان الى الوقوف عند أحكام الشرع، والتماس رضا الله والبحث عن مراداته ومنهياته؟

هل يكفي أن يعرف الانسان عظمة الخالق وقدرته وكمال صفاته؟ وهل يكفي أن يطلع على أمره ونهيه ليلتزم بشرعه في شؤون حياته؟.

أم لا بد أن يتربى الانسان وفق منهج معين يرتكز على توثيق الصلة بالله نظراً وعملاً، فكراً وتطبيقاً. ويقوم بالإشراف على هذه التربية أساتذة المنهج الرباني.

إن مطالعة التاريخ تبرز أن المنهج الإلهي تعاقب الأنبياء على تربية الناس وفقه، وهذا المنهج يتعامل مع النفس الإنسانية فيغرس فيها الخوف والرجاء؛ الخوف من الله تعالى وعقابه، والرجاء في رحمة الله ورضوانه ونيل ثوابه. وقد استقامت نفوس الملايين من البشر على العقيدة الصحيحة والسلوك الصالح عبر التاريخ عندما توازنت معاني الخوف والرجاء في نفوسهم.

وعندما يستقيم الإنسان ويستبصر بالرؤية الإيمانية الصادقة فإن حياته ترقى حضارياً فيتوخّى السلوك الراقي مع عالمه، يعاون الانسان، ويرفق بالحيوان، ويحافظ على خيرات الأرض، ويمنع التلوث عن البيئة، ويرشد الاستهلاك، وينظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفق معايير العدل والحق والمساواة والحرية والكرامة.

لا غرابة إذاً عندما يعطي الاسلام مساحة واسعة للتعريف بالخالق وعظمته وقدرته المطلقة، ولا غرابة حين يجعل منهجه التربوي يقوم أساساً على تكوين الانسان الصالح بغرس التقوى ومعانيها في قلبه، وأداتا المنهج في تحقيق التقوى هما الخوف والرجاء، قال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: **﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾**[2] ووصف تقلبهم بين الخوف والرجاء في الآية: **﴿يسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾**[3]، وقال تعالى كاشفاً عن العلة في ثوابه **﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾**[4].

وغرس الخوف من الله في قلب المؤمن إيجابي في ثمرته خلافاً للخوف من غير الله من قوى الطبيعة ومظاهر الكون، فإن الشجاعة في مواجهتها والإفادة من

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٤٩.
(٢) سورة الرعد، الآية ٢١.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.
(٤) سورة إبراهيم، الآية ١٤.

تسخيرها للإنسان، وذلك بإخضاعها لعلمه وصناعاته وإنتاجه. واجتناب الظن بأنها تملك قدرةً وإرادةً وتأثيراً على مجريات الأحداث في الحياة كما كان يظن قدامى اليونان عندما سيطرت عليهم أفكار التوهم والتخيل، فنسبوا لمظاهر الطبيعة صفات الألوهية، وعبدوها من دون الله؛ فللبحر إله، وللخصب إله، وللرعد والعواصف إله، وللحب إله وللجمال إله، حتى إن الآلهة العديدة التي اعتقدوها سلبت الإنسان كل سلطان فما هو إلاّ ذرة في مهب الرياح الهوجاء لا قدرة له على الثبات والمواجهة، بل هو خاضع للحتميات القاهرة التي تفرضها إرادات الآلهة المتعارضة.

لقد جرد الاسلام الإنسان من خوف الطبيعة الصماء، ومن خوف الأحياء الضخمة والقوية، ومن خوفه من بعض بني جنسه، عندما وضّح له حقيقة الأشياء، ومنعه من السقوط في عبودية غير الله. بل إن الخوف من الله تعالى عودل بالرجاء لئلا يسقط الانسان فريسة القنوط والاكتئاب، ولئلا يشل الخوف طاقته، ويعطله عن العمل المثمر والإنتاج النافع، فكانت آيات الرجاء تبعث الأمل في نفوس المؤمنين، وتدفع الى العمل، وتقاوم اليأس بل وتحرمه **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾**[1].

لقد اهتم الاسلام بتوجيه أتباعه نحو التفكير التأملي في ظواهر الكون وقوانين الحياة، فملاحظة الظواهر الطبيعية ورصدها هي أولى مراحل التفكير العلمي المنظم.

قال تعالى: **﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾**[2]. وقد تبدو بعض الظواهر غامضة، لا تُعرف أسبابها وعللها، وقد يحاول الإنسان تعليلها تعليلاً عقلياً قد لا يُوفَّق فيه، ومن هنا فإنَّ الإسلام وهبه بعض القواعد والتفسيرات التي تعينه على فهم الكون والحياة، وتمنعه من الانحراف في تفسير ظواهرهما تفسيراً يفسد عقيدة التوحيد، أو يقود إلى الخرافة والأساطير التي تعشعش في العقل وتحرفه عن التصور السليم، ومن هنا بادر رسول الله ﷺ لتصحيح تصور بعض الصحابة إزاء ظاهرتي الكسوف والخسوف، حين اعتقدوا أن خسوف الشمس والقمر يتعلق بموت إبراهيم بن

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

(٢) سورة يس، الآية ٣٨.

الرسول عليه الصلاة والسلام، فبيَّن لهم رسول الله ﷺ أن ظاهرتي الكسوف والخسوف علامتان وآيتان من آيات الله تشيران الى إسلام الشمس والقمر لله بخضوعهما للقانون الفلكي الذي يحكمهما، وأن لا علاقة لما يحدث في الأفلاك وعالم النجوم بما يقع من أحداث إنسانية على الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموها فصلوا**»[1] وهكذا يظهر المؤمن سجوده لخالقه وخضوعه الإرادي لمن تخضع له السموات والأرض طوعاً وكرهاً.

وبذلك وضع الاسلام حداً لكل ما يتعلق بعلم التنجيم القائم على تأثير الكواكب على أحداث الأرض، ومن ثم الإفادة من رصد الأفلاك في التنبؤ بأحداث المستقبل التي تقع للأفراد والجماعات. وما أكثر المتشبثين بالتنجيم عبر تاريخ البشرية الطويل، بل وما أكثرهم في عالم اليوم رغم انتشار الوعي والعلم، بل قد نجد من المثقفين والعلماء المتخصصين في علوم الطبيعة والفلك والرياضيات وأنواع العلوم الدقيقة من يتقبل عقله أفكار التنجيم والتنبؤ بالمستقبل. ويبدو أن الإنسان مستعد للتعامل مع عالم الغيب بطريقة بعيدة عن المنطق وقيم العلم مهما بلغ من مكانة في علوم الدنيا. وأن العقيدة الاسلامية هي سبيل النجاة من الوقوع تحت تأثير الأساطير.

لقد حددت العقيدة الاسلامية مجالات الغيب التي أتاح الوحي الإلهي للإنسان التعرف عليها، وسدت ما سوى ذلك. فليس على الإنسان إلا التحرك الواعي في التعامل مع «الغيب» من خلال نافذة الوحي الإلهي التي جعلته يطل على الإلهيات والروحانيات والسمعيات والنبوات دون أن يقع تحت سلطان الخرافات أو استغلال المشعوذين والسحرة. يقول المفكر «كولن ولسن» في كتابه «الانسان وقواه الخفية»: «لا تستطيع الحضارة أن تتقدم إلى أبعد مما وصلت اليه حتى يسلم الناس بقوى الغيب غير المنظورة تسليماً بديهياً على مستوى تسليمهم بالطاقة الذرية». ولكن هذا المفكر يدعو الى استخدام قوى الانسان «الكامنة في لا وعيه» لإحداث الاتصال بعالم الغيب وهو ما يسميه بعلم السيطرة والاتصال ـ أو السبرناطيقا اصطلاحاً ـ والذي كشف عن حقيقة أن ثمة برمجة تتخلل

---

(١) صحيح البخاري ٤/٧٦ ط. استانبول.

الطبيعة بأسرها[1].

وبعد دراسة عميقة لكل مكتشفات علم السپرناطيقا قال ولسن - وهو فيلسوف وجودي بريطاني -: «قد اقنعتني - يعني الأدلة - بأن المزاعم الأساسية للنزعة الغيبية، هي مزاعم صحيحة، ويبدو لي أن حقيقة الحياة بعد الموت قد أصبحت قائمةً بعيدةً عن متناول أي شك معقول»[2].

إن العقول البشرية غالباً ما تتسم بالسذاجة ويسهل خداعها وغشها من قبل السحرة والمحتالين، ومن ثم فإن خواص العقل هذه جعلت الكثيرين من أبناء هذا القرن وبدافع الإحساس بالعقم والضجر اندفعوا نحو إحياء الاهتمام بالعالم الغامض وبالوسائل السحرية بعد أن ظن العلماء منذ القرن السادس عشر الميلادي أن عصر العقل قد بزغ وأن عهود السحرة قد ولّت[3]. يقول كولن ولسن: «إن انجلترا وأمريكا تضمان الآن أعداداً من السحرة تزيد على ما كان فيهما منذ عصر الإصلاح»[4].

وهكذا فإن العلم والمدنية المعاصرة لم يتمكنا من تحرير عقل الإنسان من الخرافة والأساطير، أما الإسلام فقد قطع السبيل على المشعوذين منذ أربعة عشر قرناً، عندما قال عليه الصلاة والسلام: «**الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموها فصلوا**»[5]

وفهم الصحابة والتابعون المقصود وهو القطع بعدم تأثير النجوم في أحداث الناس والحياة، فقال قتادة السدوسي في تفسير الآية: ﴿**ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح**﴾: خلق - الله - هذه النجوم لثلاثٍ؛ جعلها زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها، فمن تأول بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم له به»[6].

إن عالم الغيب لا ينكشف للإنسان إلاّ عن طريق الوحي الإلهي، أما

---

(١) كولن ولسن: «الانسان وقواه الخفية»، ص ٨، ١١، ١٤.
(٢) كولن ولسن: «الإنسان وقواه الخفية»، ص ٢١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٨، ٣٢٤.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٩.
(٥) صحيح البخاري ٤/٧٦ ط، استانبول.
(٦) صحيح البخاري ٤/٧٤ ط استانبول.

التعرف على القوى الكامنة في الإنسان والكون فهو لا يدخل في دائرة الغيب. فالله وحده عالم الغيب والشهادة، أما الإنسان فمجال نشاطه عالم الشهادة، ولكن الله تعالى أطلعه على قدر من عالم الغيب يوسِّع دائرة وعيه، ويَلزمه في حياته الوجدانية والعقلية، ويفسح له في وجوده الذي تحده المادة، وهكذا أرسل الله الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، لنقل القدر المناسب من المعرفة الغيبية للإنسان، وفق ما حدده الله تعالى في وحيه لأنبيائه. فليس للإنسان أن يطلب علم الغيب خارج دائرة الوحي، إذ ليس له أن يبدد قواه العقلية وطاقاته فيما لا سبيل له إليه، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ**» رواه البخاري في صحيحه[1].

لقد جَرَّت محاولات الإنسان الذاتية أن يتصور الخالق إلى أنواع من التجسيم والتجسيد، ومن هنا أمر الرسول الكريم ﷺ بعدم التفكير في ذات الله والانصراف الى التفكير في المخلوقات الجامدة والحية، ومحاولة التوصل الى قوانين المادة وأسرار الطبيعة، للإفادة من ذلك كله في بناء الحضارة. أما التعرّف على الله تعالى وصفاته وكيفية توحيده وعبادته فيتلقاه الإنسان عن الرسل الكرام، دون أن يجهد عقله في التصور أو الاستقراء أو الاستدلال، إلا ضمن دائرة الوحي الإلهي.

إنَّ الانسان المعاصر الذي يعيش في دائرة الحضارة الغربية امتلأ غروراً وعجباً، وصورت له الإمكانيات التكنولوجية الهائلة أنه قادر على الاستقلال بذاته، والاعتماد على تجاربه وعقله لإحراز العلم والمعرفة وتسخير الطبيعة والكشف عن أسرار الكون، وقد نسي ربَّه في بهرج الانتصار العلمي، بل صوَّر له الفلاسفة الوضعيون والوجوديون والبراجماتيكيون أنه الكائن الأول الذي تخضع له الموجودات الأخرى، وما عليه إلّا أن يكتشف حريته ويثق بقدرته، وفي غمرة هذا التمويه الفكري سقط الانسان في جاهلية القرن العشرين، وبدل أن يتحرر عاد ليسقط بفعل حاجاته النفسية والروحية في براثن السحر والشعوذة.

---

(١) المصدر نفسه.

وسبيلُ النجاة من أزمة الإنسان المعاصر هو العودة الى تعاليم الوحي الإلهي، والتعرف على الله وعالم الغيب من خلاله. وبذلك يحقق الإنسان وجوده المتكامل ولا يفقد شيئاً من طاقاته، وهو يندفع للكشف عن المجهول البعيد بوسائله الذاتية القاصرة.

إن كبت الروح ومنعها من التعرف على الله ـ الواحد الأحد الفرد الصمد ـ لن يولِّد إلّا موت الإنسان وبقاء الجسد المادي الذي لا يفضل عن الحيوان، وهذا هو مصدر شقاء الإنسان المعاصر أنه لا يشعر باكتمال الحياة. قال عليه الصلاة والسلام: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت**»[1].

وقد يرى بعض الفلاسفة والمفكرين أن تحديد العلاقة بالله أخذت حيزاً كبيراً في تعاليم الإسلام، وأن عالم اليوم قد اتجه الى بحث العلاقات الاجتماعية وتحديد الحقوق والواجبات والتأكيد على حرية الإنسان وكرامته وتطلعاته نحو الرفاه والسعادة.

والحق أن الإسلام أكّد على التوحيد وجعله محوراً للحياة، وأن أول العدل والوفاء أن يعدل المرء مع ربه وأن يفي له بحق الألوهية، ويجرد له العبادة. فإن لم يعدل مع الرب المُنعم المتفضل القادر على الحساب والثواب والعقاب فكيف يعدل مع أمثاله من البشر؟ وإن لم يتحرر من أوهام الشرك وخرافة الخضوع لقوى الطبيعة أو للآلهة المصنوعة أو للمعتقدات الخاطئة فكيف سيتحرر من الخضوع لطواغيت البشر وكيف يحقق ذاته، ويحافظ على حريته وكرامته اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً؟

إن الموحِّد هو الرجل الحرُّ لأنه يعرف أن لا إله إلا الله، وأن لا أحد ـ كائناً من كان ـ يقدر على ضُرِّه أو نفعه إلا بإذن الله.

وهكذا يعرف مكانه في الكون، ويعتز بدينه ونفسه، ويحقق الخير والحق والجمال، وقبل ذلك يحقق الغاية من وجوده.

ولن يقع المؤمن بالاغتراب الذي يصوره سارتر وألبير كامي والوجوديون الآخرون، ولن ينتهي اغترابه الى الإحساس بالضياع والتمزق والعبث، ولن يحتاج إلى إثبات حريته ووجوده بإنكار وجود الله والبعد عن سلطانه، فتلك

---

(١) صحيح البخاري ١٦٨/٧.

رؤى فكرية قاصرة لا تخرج عن حدود التجربة والمعاناة الإنسانية، مما يعبِّر عن خيبة الأمل وضياع اليقين، في حين يعيش المؤمن في رحاب واسعة ورؤى عريضة تقتبس من علم الله ونوره ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[1].

ومهما حاول الفلاسفة والمصلحون أن يتخطوا هذا الطريق، طريق الإيمان بالله وتوحيده، وطرحوا برامج الإصلاح الاجتماعي في إطار الفلسفات المتنوعة البعيدة عن الله تعالى فإنهم لن يحققوا الصلاح المنشود، لأن التنكر لله تعالى لن ينجب إلاّ الشر ولن يزرع إلاّ الحقد، ولن يكون إلاّ شخصيات قلقة تفتقد مقومات الإنسان الصالح.

ولو قَدَرَ الفلاسفة والمصلحون لله حقَّ قدره لعرفوا أن أول لوازم إصلاح الإنسان تعريفُه بالخالق عزَّ وجلَّ وتوثيقُ صلته به بالعبادة والطاعة لأوامره ونواهيه، وأن مهمة المصلحين ليست في تشريع أديان جديدة، وتحديد رؤية للعالم والانسان عن طريق النظر والاجتهاد، فإن حق التشريع لله وحده، لا ينازعه فيه الاّ ظالم جاحد ومتكبر جافٍ. قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الاسلام﴾[3].

إن همة المفكرين ينبغي أن تتوجه نحو فهم المضامين العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية في الاسلام وتعميق هذا الفهم باستمرار، للوصول بالإنسان إلى الله تعالى وتحقيق سعادته في دنياه وآخرته.

الألوهية والربوبية:

ويرتكز نظام الاعتقاد في الاسلام على عقيدة الألوهية والربوبية. استمع جبير

---

(١) سورة النور، الآية ٤٠.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨ ـ ١٩.

ابن مطعم الى رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور فلما بلغ هاتين الآيتين: **﴿أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خَلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾**[1] قال جبير: «كاد قلبي أن يطير»[2].

فلماذا كاد قلب هذا الصحابي أن يطير عند سماع الآية؟ أليس لما فيها من بليغ الحجة على الخلق مما وعاه عقله واستشفته روحه؟ وكم من الناس يمرون على هذه الآية وغيرها فلا تحرك قلوبهم ولا تهز وجدانهم ولا تثير من المعاني ما أثارته في قلب هذا الصحابي الجليل.

لقد تأمل المفسرون في هذه الآية تأملات شتى فـ (أم) هنا ليست بمعنى (بل) وإنما هي للاستفهام، ولم يكن المشركون ينكرون أن الله خلقهم وخلق السموات والأرض وأنهم ليسوا بخالقين، ولكنهم يغفلون ما يترتب على ذلك من توحيد الألوهية وهو مقتضى الاعتراف بالخالق ونعمه.

ولقد لخص ابن تيمية أقوال المفسرين في الآية: **﴿أم خُلقوا من غير شيء﴾** فقال: «مِن غير ربٍ خلقهم، وقيل من غير مادة، وقيل من غير عاقبة وجزاء. والأول مراد قطعاً، فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق»[3].

لقد جنح بعض فلاسفة القرن العشرين الى القول بأن المادة هي الأصل الأول وأن «الإنسان يقوم لوحده» لم يخلقه رب ولم يُحكمه إله، وهذا هو عنوان كتاب جوليان هكسلي الذي أنكر فيه وجود الله زاعماً أنه يعتمد على أدلة العلم. وقد نقض رأيه عالم آخر هو كريسي موريسون في مؤلفه المشهور (الانسان لا يقوم وحده) الذي بيّن فيه بأدلة العلم الحديث نفسه أن الله خالق كل شيء.

وهذا يدل على أن الصراع بين الإيمان والالحاد قديم وحديث وأن مقولة فيورباخ (لا إله والحياة مادة) ليست جديدة، وإنما هي ترديد لأقوال الدهريين القدامى والطبيعيين المحدثين، على أن هذه الآراء تصدعت منذ منتصف هذا القرن عندما تم الكشف عن حقيقة المادة، إذ تفجرت ذراتها، ودلّت على أنها ليست «مادة» بالمعنى القديم بل هي طاقة سالبة وموجبة وهي في حالة حركة

---

(١) سورة الطور، الآية ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كما في فتح الباري حديث رقم ٤٨٥٤.

(٣) الفتاوى ١٣/١٥١.

وليست ساكنة. وبذلك أطلّ العلم الحديث على تصور جديد للمادة نفسهـا هدم به كل التصورات القديمة للدهريين القدامى والطبيعيين الجدد.

ولم يكن العرب المشركون الـذين أخبر القـرآن عن عقائـدهم ينكرون أن الله تعـالى هـو خلقهم قـال تعـالى: **﴿ولئن سـألتهم من خلقهم ليقـولن الله فـأنّى يؤفكـون﴾**[1] كما أنهم مـا كـانـوا ينكـرون أن الله هـو الـذي خلق السمـوات والأرض. قـال تعـالى؛ **﴿ولئن سـألتهم من خلق السمـوات والأرض ليقـولن الله﴾**[2].

بل لم يكونوا يجهلون بعض صفات الخالق مثل كونه عزيزاً عليماً. قال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾**[3].

ولكن المشركين مع اعترافهم بالربوبية، فقد أشركوا معه غـيره في العبوديـة، متجاهلين تفرّده بالخلق، ومن هنا أنكر عليهم الله تعالى هذا الخلط الذي أفضى الى صرف العبـادة الى من لا يستحقها، لأن العبـادة شكـر للخـالق المنعم فمن ليس بمصـدر للخلق وللنعم لا يستحق العبادة، قـال تعالى: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾**[4].

وقال تعالى: **﴿إن الذين تدعـون من دون الله لن يخلقوا ذبـاباً ولـو اجتمعوا له﴾**[5].

وقال تعالى: **﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾**[6]

وقال تعالى: **﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهو يُخلقون﴾**[7]. وقال تعالى: **﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون﴾**[8].

وبين ما هم فيه من تخليط فقال تعـالى: **﴿أم جعلوا لله شركاء خلقـوا كخلقه**

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٨٧.
(٢) سورة الزمر، الآية ٣٨.
(٣) سورة الزمر، الآية ٩.
(٤) سورة النحل، الآية ١٧.
(٥) سورة الحج، الآية ٧٣.
(٦) سورة النحل، الآية ٢٠.
(٧) سورة الفرقان، الآية ٣.
(٨) سورة الأعراف، الآية ١٩١.

فتشابه الخلقُ عليهم﴾[1]. فما دام الشركاء ليس لهم خَلْق فما مصدر التشابه والالتباس إذاً؟. إن التمايز بين الخالق الواحد والمخلوقات المتنوعة واضح، لا يقبل اللبس والخلط إلّا عندما تختلُّ المقاييس وتعوجُّ الموازين وتنحرف الفطرة. فكل ما في السموات والأرض مخلوق لله وحده. قال تعالى: ﴿أروني ماذا خَلقوا من الأرض أم لهم شِرك في السماء﴾[2]. إن وحدة واتساق نظام الكون والحياة في العالم المشهود دليل على صدوره عن أمر واحد وإرادة واحدة لا تُنازَع، ولولا ذلك لتفكك نظام الكون واختلت وحدتُه واضطرب تناسقه و ﴿لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾[3].

قال تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تَفاوُت﴾[4].

يقول كريسي موريسون: «إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون»[5]. ويقول: «إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حدَّ له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم، غير أن تحطيم ذرة دالتون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون الى مجموعة نجوم مكونة من جرمٍ مذنب وإلكتروناتٍ طائرة قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً، ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبِّر جبار وراء ظواهر الطبيعة»[6] ويقول ستانلي كونجدن: «إن جميع الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار يدي الله وعظمته ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٦.
(٢) سورة فاطر، الآية ٤٠.
(٣) سورة المؤمنون، الآية ٩١.
(٤) سورة الملك، الآية ٣.
(٥) العلم يدعو للإيمان ٤٦.
(٦) المصدر السابق ٤٦ ـ ٤٧.

آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجـود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[1].

ويقول بول كلارنس: «إن الأمر الذي نستطيـع أن نثق به كـل الثقة هـو أن الانسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العـدم المطلق، بـل إن لهما بدايـة، ولا بد لكـل بدايـة من مبدىء، كـما أننا نعـرف أن هذا النـظام الرائع المعتمد الذي يسـود هذا الكـون يخضع لقـوانين لم يخلقهـا الانسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيـراً خارج دائـرة الإنسان. إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير الهي محكم»[2].

ويقول جورج أيول: «أن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهـد بوجـود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة الى الاستدلال بـأن الأشياء المـادية تعجـز عن خلق نفسها»[3].

فهذه أقوال علماء الطبيعة الكبار في القرن العشرين تشهـد بما قـاله الله تعـالى في كتابه المنزل على نبيه من أن وجود المخلوق يدل على وجود الخالق، وأن سبب الكفر يرجع إلى انعدام اليقين عند الكافرين لأن الله تعـالى لم يكتب لهم الإيمان **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض بـل لا يـوقنون﴾**. قـال الخطابي: «فـذكر العلة التي عـاقتهم عن الإيمـان، وهي عـدم اليقين الذي هو موهبة من الله عز وجل ولا ينال إلا بتوفيقه، ولهذا كان انـزعاج جبير بن مطعم حتى قال: كاد قلبي أن يطير والله أعلم»[4].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ٢٦.
(٢) الله يتجلى في عصر العلم ٤٤.
(٣) المصدر السابق ٤٧.
(٤) الخطابي: أعلام الحديث ١٠٠٠.

النبوات

الايمان بسائر الأنبياء وأثره:

يهتم الإسلام بتوجيه أتباعه نحو النظرة الإنسانية الواسعة، ونحو استشراف التاريخ واختراق الجدران بين الثقافات والحضارات، والإفادة من الحصيلة الثقافية العالمية لخير المجتمع الاسلامي. وفي قوله تعالى: **﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**[1] يوضح القرآن عقيدة المسلمين في الإيمان الشامل بأنبياء الله وأمنائه على وحيه، فالدين في نظر المسلم واحد من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ وهو الاسلام، والإيمان بالأنبياء واجب حتى إن إنكار نبوة أحدهم تفضي بالمنكِر الى الردة عن الاسلام، بل إن تعاليم الأديان ومناسك العبادة أحياناً تبقى ثابتة، تشير عملياً الى وحدة المصدر الإلهي لهذه الأديان جميعاً... فعن عبدالله ابن عمرو بن العاص قال: «أفاض جبريل بإبراهيم صلى الله عليهما، فصلى به بمنى الظهر والعصر، والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من منى الى عرفة، فصلى به الصلاتين: الظهر والعصر، ثم وقف له حتى غابت الشمس، ثم دفع

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٨٤، ٨٥.

حتى أتى المُزدلفة، فنزل بها فبات وصلى، ثم صلى كأعجل ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه الى منى، فرمى وذبح، ثم أوحى الله تعالى الى محمد أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»[1]. وهو يدل على وحدة مناسك الحج في تعاليم إبراهيم ومحمد ﷺ، وهو مصداق قوله تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه﴾**[2].

إن التشابه وأحياناً التماثل بين الأديان في العقيدة خاصة ثم في بعض المناسك التعبدية والتشريعات الاجتماعية لا يبعث على الشك في صحتها، كما هو منحى بعض العلماء المعاصرين من الانثروبولوجيين والمؤرخين، الذين يدرسون الدين على نفس منهجهم في دراسة الفولكلور والأساطير الشعبية، فهم يرصدون أوجه التماثل بين الديانة اللاحقة والديانة السابقة ليصلوا الى نتيجة قد حددوها - خلافاً للمنهج العلمي - وهي أن الاسلام ليس مصدره الوحي الالهي، بل هو نسيج من تعاليم سابقة بعضها استمد من التوراة مثل قصص الأنبياء، وبعضها من الإنجيل، وبعضها من القانون الروماني، وهكذا متناسين أن التماثل سببه وحدة المصدر الالهي، وأثر الأديان السابقة في المجتمعات البشرية المتنوعة عبر التاريخ الانساني، فهذا ما يتغافله الانثروبولوجيون والمؤرخون، وبذلك يخونون الحقيقة عندما يغفلون هذا الوجه منها. لقد حاول بعضهم ربط معاني بعض الآيات القرآنية بالأساطير السومرية والبابلية والآشورية والفرعونية واليونانية والرومانية لإسقاط فكرة الوحي الإلهي، والقول بأن مصادر الدين - كما يثبتها العلم الذي يدعونه - هي الفولكلور والأساطير الشعبية وليس الوحي الإلهي[3]. وبالطبع فليس العيب في علم الانثروبولوجي - هو علم الانسان وبيئته الثقافية التاريخية - بل في التوجيه المنحرف الذي سعى اللادينيون لإقحام هذا العلم فيه

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم للآية ٩٥ من سورة آل عمران، وإسناد الحديث حسن وله حكم الرفع لأنه من أمور الغيب.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٣٦.
(٣) محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب ١٤٦ - ١٦٢.

تحقيقاً لأهداف عقدية بعيدة عن العلم المجرد ومتطلبات البحث العلمي، ومن هنا صار لزاماً على المؤمنين في هذا العصر أن يعيدوا لهذا العلم وجهته الصحيحة في الكشف عن فطرة الانسان، وحقيقة الأديان، وصلة البشر بالخالق الرحيم الرحمن، مستشرفين التاريخ باحثين في جذور الحياة وأول الآثار، وعندما يقود العلم رجال يتسمون بالوعي والتجرد فإنهم سيقلبون النتائج التي أعلنها اللادينيون من المتلبسين بثياب العلم زوراً وبهتاناً.

لقد بيّن القرآن بوضوح التشابه بين الأديان ولم ينكره، فقال تعالى مخاطباً رسوله: **﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾**[1] فالقرآن تصديق لرسالات الأنبياء السابقين وليس نقيضاً لها.

وقد اختار الله تعالى الرسل الكرام من بين الناس، وجعلهم أئمةً يهدون العباد الى توحيد الله وتحكيم شرائعه، وهم أمثلة عالية في عمل الخير وتنفيذ أوامر الله، لذلك فإن الإسلام ينظر اليهم بوصفهم أمثل الناس وأفضلهم وأعلاهم درجةً وقدراً، وأسماهم تصوراً وسلوكاً. كيف لا وقد اختارهم الله تعالى رسلاً **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[2].

وهو **﴿يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾**[3] لذلك فهم منزهون عن المعاصي، معصومون من الخطايا، ليصح الاقتداء بهم في سائر سلوكهم وجميع أحوالهم. قال تعالى: **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فِعلَ الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾**[4].

ومن أجل ذلك كانت صورة الأنبياء السابقين على محمد ﷺ في القرآن والسنة أمثل وأجلّ وأسمى من الصور التي ترسمها الكتب الدينية الأخرى كالتوراة ـ وشرحه التلمود ـ والانجيل، لما نال الكتب الأخرى من تحريف على أيدي أتباعها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.
(٣) سورة الحج، الآية ٧٥.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ٧٣.

والأنبياء أوحي اليهم بشرع دون أن يُكلفوا بتبليغه، لكنهم يعملون بموجبه، وأما الرسل فأوحى اليهم بشرع وكُلِّفوا بتبليغه، وقد سمى القرآن منهم خمسة وعشرين رسولاً، وهم: آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وإدريس ويونس وهود وشعيب وصالح ولوط والياس واليسع وذو الكفل وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهؤلاء الرسل يجب الايمان برسالاتهم على تعيين أسمائهم وأشخاصهم، وإنكار واحد منهم كفر بصريح القرآن، وهم يتفاضلون، وأفضلهم أولو العزم من الرسل لشدة ابتلائهم وعظيم جهادهم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. قال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾[1] وأفضل الرسل جميعاً محمد ﷺ كما في الحديث (ما من نبي، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي)[2]، ولا يتنافى هذا التفضيل مع قوله تعالى: ﴿لا نفرّق بين أحد من رسله﴾[3] لأن المراد عدم التفريق بالإيمان برسالاتهم جميعاً وليس في التفاضل بينهم. والأنبياء والمرسلون من البشر، لا يخرجون عن البشرية بالوحي، بل هم يحافظون على طبيعتهم، وقد حرَّف النصارى وحيَ الله، وخالفوا عيسى عليه السلام عندما أضفَوا عليه صفات الألوهية، وقد بين القرآن بوضوح أن أفضل المرسلين محمد ﷺ هو بشر لم تكسبه الرسالة صفات الألوهية قال تعالى ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ﴾[4] فالوحي هو الذي يميز الرسول، ويكشف له الغيب، ويعرّفه بالله وبصفاته وبأسمائه، وما يحب وما يكره، وبأوامره ونواهيه، وبشريعته التي يريد إنفاذها في الحياة، وبأسرار الخلق والأمر، والقضاء والقدر. ولم يكن الأنبياء من أرباب الفلسفات أو علماء

---

(١) تشير رواية ضعيفة الى أن عدد الأنبياء. . . ، ٢٤ نبي وعدد الرسل ٣١٥. انظر مسند أحمد ٥/٢٦٦ وفي إسناده مُعان بن رفاعة السُّلامي لين الحديث كثير الإرسال كما في التقريب وعلي ابن يزيد الألهاني ضعيف والقاسم بن عبدالرحمن صدوق يغرب كثيراً.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

(٣) أخرجه الترمذي: سنن ٥/٥٨٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ١/٥.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٣٦.

(٥) سورة فصلت، الآية ٦.

الطبيعيات، ولم يكن علمهم كسباً، بل كان أفضل الأنبياء محمد ﷺ أمياً لا يحسن القراءة والكتابة، وعاش في بيئة خالية من الدراسات الفلسفية والطبيعية المعقدة، كالتي عرفها اليونان والفرس والهنود. ومع ذلك فإن تعاليمه رسمت طريق السعادة والفلاح، وأثرت في مئات الملايين من البشر الذين اتبعوها، فنظَّمت حياتهم الخاصة والعامة، وحكمت اجتماعهم واقتصادهم وسياستهم وأخلاقهم وقيمهم قروناً طويلة، وأثمرت حضارة عالمية سامقة كان لها أثر كبير في الحضارة العالمية، ولا شك أن هذا ما كان ليحدث لولا الوحي الالهي.

وكان تكليف الرسل بحمل الوحي الإلهي وتبليغه مما يجر عليهم الأخطار، لأن الرسالات التي يدعون اليها تقتضي إحداث تغيير كبير في أطر الحياة العقدية والاجتماعية، فكانوا يلقون مقاومة كبيرة من أصحاب النفوذ والمصالح، ومن الجمهور الذي تنتشر فيه العقائد المخالفة لرسالاتهم، وهذا عرَّضهم للأخطار.

ولم يكن بوسع الأنبياء أن يتخذوا مواقف وسطاً أو حلولاً توفيقية، لأن الرسالة ليست نابعة من اجتهادهم فيغيِّرون ويبدِّلون، بل لا بد لهم من الالتزام بنص الوحي الالهي وبمضامينه، قال تعالى في حق سيد المرسلين **﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين. وإنه لتذكرة للمتقين﴾**[1]. فلا بد للرسول إذاً من التزام أمانة التبليغ مهما كابد من البلاء والمقاومة، ومن هنا جاءت محنُ الأنبياء. فهذا نوح عليه السلام أول رسول الى الناس ـ كما أن آدم أولُ نبي ـ عمِّر طويلاً، فدعا قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهراً الى توحيد الله، فما استجاب له بعد إقامته فيهم ودعوته لهم الا قليل؛ هم الذين نجوا من الغرق. قال تعالى **﴿وما آمن معه الا قليل﴾**[2] وقد اتهمه قومه بالسفه والضلال والجنون وكثرة الجدل وبالافتراء على الله، وهددوه بالرجم، وقابلوه بالسخرية والتهكم، وهو يقابل ذلك بالصبر والاستمرار في دعوتهم حتى أدرك أنهم لا يستجيبون ـ بعد أن دعاهم قروناً ـ، فدعا عليهم كما يحكي القرآن الكريم: **﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين**

---

(١) سورة الحاقة، الآية ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية ٤٠.

دياراً، إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[1]. فعاقبهم الله تعالى بالطوفان ونجّى نوحاً ومن آمن معه.

وهذا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، وخليل الرحمن نشأ في بابل التي يحكمها النمرود الذي ادعى الألوهية، وكان قومه يعبدون الأصنام، وقد عصم الله إبراهيم وآتاه الحجة منذ صغره، فدعا قومه واحتجَّ عليهم وكسر أصنامهم ليثبت لهم عجزها عن الدفع عن ذاتها فكيف تدافع عن غيرها!! فما كان منهم إلّا أن ألقَوه في النار فحفظه الله ونجاه. قال تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[2].

وهاجر إبراهيم في الأرض يدعو الى الله، فنزل حران حيث تعبد الكواكب، ثم مصر الفراعنة، وهو يتعرّض لأنواع الابتلاء والمحن في نفسه وأهله وولده.

وهذا موسى - كليم الله عليه السلام - واجه طغيان فرعون مصر وهو يدَّعي الألوهية، ويستعبد بني إسرائيل، يقتل أبناءَهم ويستحيي نساءهم، فدعاه الى عبادة الله وحده، فتمادى فرعون في كفره، واعتزم قتل موسى وقومه لولا أن نجاهم الله وأغرق فرعون وجنده.

وقد لقي موسى من بني إسرائيل أنفسهم من العنت والكبرياء والجدل والاستعداد للانحراف عن العقيدة حتى توفّاه الله.

وهذا عيسى عليه السلام دعا اليهود الى دين الحق الذي انحرفوا عنه، وأجرى الله على يديه المعجزات الباهرة، فعارضه الكهنة وأجمعوا على قتله، فأنجاه الله منهم ورفعه.

وهذا رسول الله محمد ﷺ خاتم النبيين، وقع عليه من أنواع الابتلاء من أذى المشركين بمكة ودعايتهم وتحديهم وحصارهم له ولأتباعه في شِعب أبي طالب واضطرارهم لأتباعه للهجرة الى الحبشة، ثم تركه ﷺ موطنه وهجرته الى المدينة، ثم استمرارهم في حربه والتأليب عليه حتى نصره الله عليهم وأظهر دينه في الأرض.

---

(١) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.

وهذه السير النبوية تشير الى حال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأنهم تعرضوا للابتلاء والامتحان بسبب تبليغهم لرسالات الله تعالى، ولم يتمتعوا في الحياة الدنيا بالنعيم والراحة، بل كانت حياتهم شديدة يلحقهم الأذى في أنفسهم وأهليهم، ويهجرون مواطنهم، ويتعرضون للقتل، فما يصدهم ذلك عن تبليغ دعوة الله وتغيير الواقع الجاهلي، ومن أجل ذلك النهج العملي في الدعوة والتربية للأتباع كان أثر رسالات الأنبياء في حياة البشرية أثراً عميقاً شاملاً، في حين بقيت آراء الفلاسفة قابعة في كتبهم ولم تتحول الى واقع عملي.. ولكل عاقل أن يقارن بين أثر القرآن والسنة وبين جمهورية أفلاطون أو مدينة الله لأوغسطين أو المدينة الفاضلة للفارابي، ليدرك أن رسالة النبي الأمي ﷺ هي النهج العملي المؤثر في حركة التأريخ ومصير الأحياء.

إن إيمان المسلمين بالأنبياء جميعاً أعطاهم نماذج روحية متنوعة وعظيمة القيمة، تتمثل فيها القيم الخلقية بأرفع سلوكيات الانسان التي يمثلها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهكذا فإن المسلم يجد في نوح عليه السلام مثالاً للداعية الصامد، فرغم تنكر قومه لدعوته بما فيهم ابنه وزوجه، فإن ذلك لم يقعده عن الاستمرار في دعوته، وتهيئة العوامل اللازمة لنجاحها ثم لنجاة أصحابه.

كما يجد المسلم في أيوب ـ عليه السلام ـ مثالاً للصبر على الأمراض والأسقام وجفوة الناس والخلطاء حتى الزوجة، فلم يزده ذلك الا احتساباً وإيماناً، ودعاء وتضرعاً حتى رفع الله عنه البلاء.

وإذا كان الإيمان الشامل بالأنبياء يوسّع من مجال الاقتداء، ويعبّر عن وحدة الرسالات الالهية، فإنه يورث المسلمين التسامح الديني ويوجدُ بينهم وبين أهل الكتاب بعض عناصر الالتقاء، ويكسبهم مرونة عالية في التعامل معهم داخل المجتمع الاسلامي بمنح الأقليات الدينية حرية المعتقد، وحق الحماية وإمكان التعايش السلمي معهم، بل تلطيف هذه العلاقة مع الأقليات الدينية عندما تسمح عقائد المسلمين ببرِّهم ومهاداتهم.

ولو افترضنا على سبيل الجدل أن المسلمين ينكرون نبوات الأنبياء السابقين

على رسالة محمد ﷺ، لتغير موقفهم من الأقليات الدينية التي ما كانت لتتمكن من المحافظة على وجودها لولا التسامح الديني الذي لم يشهد له التاريخ الانساني مثيلاً حتى اعتبرت الدولة الاسلامية مسؤولة عن حماية أماكن العبادة للديانات الإلهية الأخرى مثل حمايتها للمساجد الاسلامية قال تعالى: **﴿ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً﴾**[1].

ولا مانع من الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بشرط أن يتقيد الجميع بأدب المناظرة. قال تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾**[3].

وقد اعترف العديد من الباحثين الغربيين بتسامح الاسلام والمسلمين فقال غوستاف لوبون: «إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم».

ويقول توماس أرنولد: «كان المسلمون ـ على خلاف غيرهم ـ اذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس».

إن عالم اليوم بحاجة ماسة الى أن تسود روح التسامح ويتقرر العدل ويُقضى على العصبيات والعنف الذي يمكن أن يحوّل التقدم التقني الى كارثة خطيرة تعصف بالبشر وحضاراتهم.

وليس كالإسلام في غرس روح الخير وبذر التعاون في ظلال الإيمان والسماحة الدينية.

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

بشرية الرسول

ومما لا شك فيه أن الأنبياء هم أوعى البشر بحقيقة الألوهية، ومعرفة استحقاق الإله وحده للعبادة، وذلك بما اختصهم الله به من علم الوحي الإلهي، فالتميز واضح عندهم بين ما هو حق لله وما هو حق للنبي. لذلك نفى القرآن الكريم عن الأنبياء أن يوجهوا الناس لعبادتهم بدلاً من عبادة الله قال تعالى: **﴿ما كان لبشر أن يؤتيَهُ الله الكتابَ والحُكمَ والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلِّمون الكتابَ وبما كنتم تدرُسُون﴾**[1].

أخرج عبد بن حميد عن الحسن البصري قال: «بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلِّم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: لا. ولكن اكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله»[2].

وعن ابن عباس قال: «قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم الى الاسلام: أتريدُ يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧٩.

(٢) الدر المنثور ٢/٢٥٠. وفي الرواية إرسال الحسن البصري.

أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريده منا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره. ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني. فأنزل الله في ذلك من قولهما **﴿ما كان لبشر أن يؤتيَهُ الله الكتاب﴾** الى قوله **﴿بعد اذ أنتم مسلمون﴾**[1].

وهكذا اتضحت طبيعة العلاقة بين «الإله» و «النبي» و «البشر». ولم يقع في تأريخ الاسلام الطويل أي جدل حول طبيعة النبي كما جرى في تأريخ النصارنية التي كانت قضية طبيعة المسيح وهل هي آلهية أم بشرية، أم آلهية وبشرية متحدة أساساً لانقسامها الى فرق عديدة متطاحنة.

لقد أعلن محمد ﷺ للمسلمين جميعاً أنه بشر مثلهم كما ورد في القرآن الكريم **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي﴾**[2]. وإذا كان الأنبياء لا يستحقون العبادة ـ وهم أفضل البشر ـ، فإن القادة الفكريين والزعماء المبرزين لا يستحقون العبادة من باب الأولى، وبالتالي قطع الاسلام الطريق أمام الدعوة الى عبودية الانسان من دون الله مهما بلغ مقامه وعظم مكانه. وبذلك حافظ على كرامة الانسان وحريته، ومنعه من السقوط في هاوية الخضوع الأعمى لغيره من البشر، فضلاً عن حمايته من عبادة المخلوقات الأخرى من حيوان وجماد وقوى الطبيعة.

وقد لا يدعو القائد المفكر الى عبادة ذاته، ولكن يحرف كلام الله ويغير أحكامه، وهو بذلك يعطي نفسه حق التشريع، وهو من حقوق الله وحده، وبذلك يتعبَّدُ الناس ويخضعهم لفكره وتشريعه؛ وهو نمط من العبودية حذر منه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ونبَّه بعض المفسرين الى وقوع الأمم السابقة فيه. فقال المفسر ابن جريج في تفسير قوله تعالى: **﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾**[3] قال: «كان ناس من اليهود يتعبَّدون الناس دون ربهم، بتحريفهم

---

(١) الطبري: تفسير ٣/٣٢٥ وفي إسناده محمد بن أبي محمد الأنصاري مولى زيد بن ثابت مجهول (تقريب ٥٠٥) والسيوطي: الدر المنثور ٢/٢٥٠.

(٢) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٧٩.

كتاب الله عن مواضعه بغير الذي يقرأون مما أنزل الله في كتـابه»[1].قال عدي بن حـاتم رضي الله عنـه: «أتيتُ رسـول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهـب، فقال: يا عديّ اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، وانتهيت اليـه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هـذه الآية: ﴿اتّخـذوا أحبارهم ورهبـانهم أربابـاً من دون الله﴾[2] قال: قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، فقـال: أليس يحرّمـون ما أحلّ الله فتحـرّمونـه، ويحلّون ما حـرّم الله فتحلّونه؟ قـال: قلت: بلى. قـال: فتلك عبادتهم»[3].

وهكذا أوضح المصطفى ﷺ أن حق التشريع لله، ومن نـازعه فيـه فقد دعـا الناس الى تأليه ذاته وعبادته من دون الله تعالى.

بل إن الإسلام مضى الى ما هو أبعد من هذه التـوجيهات، احتيـاطاً للنـاس وإبعـاداً للأمـة من الوقـوع في بـراثن المضللين. فجعـل الـولاء للعقيـدة وليس للرجال مهما علت مكانتهم، فهذا رسول الله ﷺ ينهى أصحابـه عن المبالغـة في تعظيمه يقول: «**لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبدالله ورسوله**»[4].

وينهى عن مديح الرجل في وجهه، لئلا يناله العجب بالنفس فيجره ذلك الى الهلاك، فلما أثنى رجل عـلى رجل عنـد النبي ﷺ قال لـه: «**ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك** ـ مراراً ـ»[5].

فأين هذه التعاليم مما تتعود عليه الأمم التي لا دين لها من الانحناء والسجود للزعـماء، والتقرب اليهم بمعسـول الكلام وعـظيم الثناء، وتشبيههم بـالله تعالى وإسباغ صفاته عزّ وجلّ عليهم، بل والـوقوف طـوابير في انتـظار زيارة قبـورهم

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم للآية ٧٩ من سورة آل عمران.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣١.
(٣) تفسير الطبري ١٠/١١٤.
(٤) أخـرجه البخـاري (الصحيح ٤/١٣٢) كتـاب الأنبياء ـ بـاب ٤٨ (واذكر في الكتـاب مريم)، والدارمي: سنن ٢/٣٢٠، وأحمد: المسند ١/٢٣.
(٥) أخرجه البخاري (الصحيح ٣/١٥٨) كتـاب الشهادات بـاب ١٦ اذا زكى رجل رجـلاً كفاه. وأخرجه مسلم (الصحيح ٤/٢٢٩٦).

بعد موتهم في الأعياد والمناسبات الوطنية وصرف المبالغ الطائلة على بناء مقابرهم وزخرفة أضرحتهم. وقديماً صرف الفراعنة الملايين وسخروا الألوف من شعبهم لبناء أهراماتهم، وحديثاً نجد هذه المظاهر في دول تدّعي نبذ الدين وتخليص الناس من الخرافة وتحريرَهم من عبودية الله!! فإذا بها تتعبدهم للزعماء من البشر في حياتهم وبعد مماتهم!!

روى الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا. قال: أفيلتزمه ويقبِّله؟ قال: لا. قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال نعم[1].

ولم يكن الداخل على مجلس رسول الله ﷺ يميزه عن أصحابه من هيئته أو مكان جلوسه، بل كان الغريب يسأل عنه ليعرفه.. أخرج الدارمي قال العباس: يا رسول الله إني رأيتهم قد آذوك وآذاك غبارهم فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه؟ فقال: «**لا أزال بين أظهرهم يطأون عقبي، وينازعوني ردائي، حتى يكون الله يريحني منهم**»[2].

وأخرج الطبراني عن عبدالله بن جبير الخزاعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يمشي في أناس من أصحابه فتستر بثوب، فلما رأى ظله رفع رأسه، فإذا هو بملاءة قد ستر بها فقال له: مه!! وأخذ الثوب فوضعه فقال: «إنما أنا مثلكم»[3].

وسئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت نعم. كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته[4].

فهذه صورة النبي في الاسلام، وهو أرفع البشر، له الحب والتوقير والدعاء،

---

(١) أخرجه الترمذي: سنن ٥/٧٥ حديث رقم ٢٧٢٨ وقال: هذا حديث حسن.
(٢) الدارمي: سنن ١/٣٥ ـ ٣٦ من طريقين، وأخرجه البزار من طريق ابن عباس أيضاً (الهيثمي: مجمع الزوائد ٩/٢١ وقال: رجاله رجال الصحيح).
(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ٩/٢١ وقال: رجاله رجال صحيح.
(٤) مسند أحمد ٦/١٧٦ وانظر: ١٢١، ٢٦٠ منه.

وله الدرجة الرفيعه، لكنه لا يتجاوز مقام العبـودية والـطاعة لله، ولا يخلع عـلى نفسه صفات الألوهية، ولا يدعو الناس الى عبادته، بل يـدعوهم الى عبـادة الله وحـده، ويجعل نفسـه مثلهم الأعلى في عبـادة الله وطـاعتـه، وشعـاره **﴿كـونـوا ربانيين﴾**[1].

وقد حرص الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عـلى التمييز بـين الألوهيـة والنبوة، خاصة وأن الأمم السابقة قد ألَّهت أنبياءها، فقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله. ولا شك أن تـأليه الأنبيـاء لم يكن في حياتهم، بـل بعد زمنهم بقليـل أو كثير حيث تـدخل المبـالغـات والأسـاطـير الى تـاريخهم وسيرتهم، ويبالـغ أتباعهم في أخبـارهم، حتى يوصلوهم الى مـرحلة الألوهيـة، ويعبدونهم من دون الله، أو يشركونهم في عبـادة الله. ومن هنا حـذر رسول الله ﷺ أتبـاعه من تـأليهه وأكـد على صفاته البشرية. فقـد «أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فكلَّمهُ، فجعل تَرعَدُ فـرائصُهُ فقـال: **(هوِّن عليـك. فإني لستُ بمَلِكٍ. إنمـا أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القَديدَ)**[2] وهذا تواضع منـه عليه الصـلاة والسلام، وهـو الذي اختاره الله من خيار خلقه، وعصمه في نسبه وطهارة محتده؛ فكل آبـائه وأمهـاته من زواج صحيح.

ورغم علو مكانته وسمو خلقه وإشادة القرآن بـرفعته وعـظمته فـإنه لم يتخطَ خصائص البشرية، فهو يتألم كما يتألم البشر، بـل إن آلامه تفـوق آلامهم. روى البخـاري أنه عليـه الصـلاة والسـلام قـال: **(إني أُوعَـكُ كـما يـوعـك رجـلان منكم)**[3]، ولما اشتد المـرض عليه حـين وفاتـه لاحظت فـاطمة ـ بنتُـهُ ـ ما كـان يتغشّاه فكانت تقول: واكرب أباه. فيقول لها مهدئاً: ليس على أبيك كرب بعـد اليوم[4]. وكان يقول: **(انا معشر الأنبياء يُضاعَفُ علينا البلاء)**[5].

---

(١) سورة آل عمران، آية ٧٩.

(٢) ابن مـاجة: السنن ١١٠١/٢ حـديث رقم ٣٣١٢ وصحيح سنن ابن مـاجة ٢٣٢/٢ حـديث رقم ٢٦٧٧.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٥٦٤٨.

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٤٤٦٢.

(٥) مسند أحمد، ٩٤/٣.

ولم يدع مناسبة إلّا وبيّنَ خصائصه البشرية التي لا تنفك عنه إلّا في عصمة النبوة، روى الامام مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(اللهمّ إنما محمدٌ بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد أخذت عندك عهداً لن تُخلفنيه. فأيما مؤمن آذيتُهُ، أو سببتُهُ أو جلدتُهُ. فاجعلها له كفارةً وقربةً، تقرِّبُهُ بها اليك يوم القيامة)**[1].

وكما يطرأ عليه الغضب يطرأ عليه النسيان، فهو وإن كان الله قد رفع درجته فوق الخلق كلهم فإنه لم يبرئه من سمات الحَدَث ولم يُخله من الأعراض البشرية[2]. فقد سها في صلاته ونسي بعض العدد من ركعاتها حتى ذُكِّر بها ونُبِّهَ عليها.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ احدى صلاتي العَشيِّ، فصلى بنا ركعتين ثم سلَّم، فقام الى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنّه غضبان، ووضع يده اليمنى على اليسرى، وشبّك بين أصابعه، ووضع خدَّه الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السُّرْعانُ من أبواب المسجد فقالوا: قُصِرت الصلاةُ، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلِّماه، وفي القوم رجل في يديه طول يقال له ذو اليدين قال: يا رسول الله أنسِيتَ أم قُصِرت الصلاة؟ قال: لم أنسَ ولم تُقصر. فقال: أكما يقول ذو اليدين؟ فقالوا: نعم فتقدَّم فصلّى ما ترك ثم سلم[3].

ولم تمنع نبوته ورفعةُ درجته أصحابَهُ من مراجعته في الرأي حتى يعزم الله له، ففي صلح الحديبية راجع عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ في موافقته على شروط الصلح فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ «فأتيت نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: فلم نُعطي الدنيَّةَ في ديننا اذاً؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أوليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٦٠١.
(٢) الخطابي: اعلام الحديث ٧٧.
(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٤٨٢ (فتح الباري ١/٥٦٥).

فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتك أنك تـأتيه العـام؟ قلت: لا. قال: فـإنك آتيـه ومطوف به[1].

وكان عمر بن الخـطاب ـ رضي الله عنه ـ يـراجع رسـول الله ﷺ ليقف على الحكمـة من مـوافقتـه عـلى شروط الصلح، وكـان يـرغب في اذلال المشركـين، «فجميع ما صدر منه كان معذوراً فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد فيه»[2].

ولم تقتصر المراجعة عـلى أصحاب النبي ﷺ المقـربـين، ولا عـلى أصحـاب المسؤولية في الدولة والمجتمع، بل إن النساء كنَّ يـراجعنَهُ أيضـاً. قال عمـر بن الخـطاب ـ رضي الله عنه ـ: «كنـا معشر قريش نغلب النسـاء، فلما قدمنـا عـلى الأنصـار إذا هم قوم تغلبهم نسـاؤهم، فطفِق نسـاؤنـا يـأخـذن من أدب نسـاء الأنصار، فصحتُ على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني! فقالت: ولم تُنكـر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي لـيُراجِعنَهُ وان إحـداهن لتهجره اليـوم حتى الليل فأفزعني ذلك فقلت: جاءت من فعلت ذلك منهن بعظيم، ثم جمعت عليَّ ثيـابي فدخلت عـلى حفصة فقلت: أي حفصـة، أتغاضب احـداكُنَّ رسولَ الله حتى الليـل، فقالت: نعم. فقلت: خبتِ وخسـرتِ، أفتأمنـين أن يغضب الله لغضب رسوله. لا تستكثري على رسول الله، ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريـه وسليني ما بدا لك»[3].

وكان رسول الله ﷺ يؤكد لأصحابه هذا المعنى، معنى بشريته، وأنه إنما امتاز عليهم بالنبوة، ويحذرهم من فعل الأمم السابقة مـع أنبيائهم عنـدما غلت فيهم فاتخذتهم آلهة مع الله سبحانه.

وإنما نهاهم عن المبالغـة في مدحـه خشية أن يجـرًّ ذلك مـع الأيام الى إسبـاغ صفات الألوهية عليه كما حصل لمن اطـرى عيسى بن مريم من النصـارى، وقد تمسّك عليه الصـلاة والسلام بصفـة العبوديـة لله وصفة الـرسالـة، فهو عبـدالله

(١) رواه البخاري في صحيحه كما في فتح الباري حديث رقم ٢٧٣١.
(٢) ابن حجر: فتح الباري ٥/٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٣) صحيح البخاري ٣/١٠٣.

ورسوله، وفيه تتمثل العبودية الصادقة لله فهو أكثر البشر عبادة وطاعة وأشدهم التزاماً بتعاليم الرسالة. . .

عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ النبي ـ ﷺ ـ صلّى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

إنَّ عبادة المصطفى ـ ﷺ ـ هي ثمرة إحساسه ﷺ بعظمة الخالق ونعمه الكثيرة عليه، وخاصةً ائتمانه على الرسالة الخاتمة التي حملها للعالمين. . . والتي صارت بفضل الله ثم بفضل تبليغ الرسول لها أعظمَ نعم الله على العباد، فهي تتقدم سائر النعم الأخرى جليلها وصغيرها، فليس من نعمة أعظم من الهداية الى معرفة الله الخالق، واستبانة طريقه المستقيم المفضي الى النعيم المقيم في الآخرة، والى الطمأنينة والراحة النفسية في الدنيا، حيث لم يعد الانسان بحاجة الى طواف طويل وجهد عقلي كبير سعياً للوصول الى الحق، وتعرفاً على الله، واستشرافاً للحق والخير والجمال. فكل ذلك جاءت به الرسالة الخاتمة التي حملها رسول الله ﷺ وبلّغها لأصحابه رضوان الله عليهم، وهم بدورهم حملوها الى أمم الأرض، وتوارثها الخلف عن السلف عبر القرون، فاهتدى بنورها ألوف الملايين من أهل الأرض.

إن نعم الله على الانسان لا تعدُّ ولا تُحصى في روحه وعقله وبدنه، بحيث إن الانسان الواحد يمتلك ثروة عظيمة جهزَّه بها الخالق القدير في أعضائه المختلفة، ومن البديهي أن الانسان صاحب هذه الأعضاء لا يرضى أن يستبدل أياً منها بالألوف المؤلفة من الدنانير والذهب والفضة، وهذا ينطبق على نعمة البصر والسمع والعقل، بل واليد والرجل. . . . وقد جاء الوقت الحاضر ليرى الناس جميعاً أن أعضاء البدن تقوم بالمال الكثير عندما يحتاج مريض الى كلية أو غيرها.

إن النعم تحيط بالإنسان وتكتنفه لكن تعوُّده عليها ينسيه قيمتها، ولو فقد الانسان شربة ماء ثم وجدها بالمال الكثير لدفعه لحيازتها، لكن كرم الخالق معه

---

(١) متفق عليه (صحيح البخاري ٢/٤٤) وصحيح مسلم حديث رقم ٢٨١٩.

أن وهبه الماء والطعام والهواء وكل ما يلزم لحياته دون أن يطالب بشيء سوى العبادة التي تحقق غاية الوجود. وكان رسول الله ﷺ يعبر عن احساسه بكل معاني الاحسان الالهي والتعهد الرباني عندما يصلّي حتى ترِمَ قدماه. (**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**).



ختم النبوة وعموم الرسالة الإسلامية

بُعث محمدٌ ـ ﷺ ـ رحمةً للعالمين، بعد أن ضاعت معالم الرسالات السماوية السابقة، وتحرفت تعاليمها، وخفت إشعاعها، وضعف أثرها في الحياة الانسانية، فكانت رسالتُه تجديداً لدعوة التوحيد التي بُعث بها سائر الأنبياء والمرسلين، وتعديلاً للشرائع السابقة وإكمالاً لها، بعد أن ارتقت البشرية وتفتحت عقولها وتهيأت نفوسها لاستقبال الرسالة الخاتمة بكل جوانبها الروحية والاجتماعية، وقد أوضح المصطفى ﷺ أن رسالته اكمال لرسالات الأنبياء السابقين، قال تعالى: **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾**[1].

وفي الحديث الشريف عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«مثلي** ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمَّها وأكملها الا موضع لَبِنَة. فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضعُ اللَّبِنَة». قال رسول الله ﷺ: **«فأنا موضع اللبنة، جئتُ فختمتُ الأنبياء»**[2].

والحديث يبين اكتمال الرسالة الخاتمة ووفاءها بحاجات البشرية، مهما درجت

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

(٢) صحيح مسلم ص ١٧٩١.

في مراقي التقدم الحضاري ثقافةً وصناعةً، مما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً**﴾[1]، فالإسلام هو الدين الخاتم الذي لا دين بعده، ومحمد هو الرسول الخاتم فلا نبيٌّ بعده، فهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة، وقد أمر الله أتباع الديانات الأخرى بالدخول فيه مبيناً لهم أنه نسخ الأديانَ كلها فلا يَقبل الله بعد بعثِ محمد - ﷺ - ديناً سواه... قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الاسلام**﴾[2] وقال: ﴿**ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[3].

وقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء والرسل من قبله أن يؤمنوا به إذا أدركوا بعثته وأن ينصروه، لذلك فقد كانوا وأتباعُهم على علم بصفاته حيث وردت في كتبهم المنزلة، قال تعالى: ﴿**الذين يتبعون النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلالَ التي كانت عليهم...**﴾[4].

وقد اختار الله تعالى الاسم لأمته - ﷺ - فقال تعالى: ﴿**هو سماكم المسلمين من قبل**﴾[5] فمن الخطأ تسمية المسلمين بغير الاسم قياساً على اتباع الديانات الأخرى، كما يفعل المستشرقون فيطلقون اسم (المحمدية) على (الاسلام)، واسم (المحمديين) على المسلمين، وينبغي للمسلم أن يجهر بإسلامه ويعلنه ويعتز به كما في القرآن... ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾[6].

---

(١) سورة المائدة، آية ٣.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٩.
(٣) سورة آل عمران، آية ٨٥.
(٤) سورة الأعراف، آية ١٥٧.
(٥) سورة الحج، آية ٧٨.
(٦) سورة فصلت، آية ٣٣.

ومحمد ﷺ هو أول المسلمين من هذه الأمة، وهو أولى بالأنبياء من أتباعهم الذين حرفوا تعاليمهم، قال تعالى: ﴿**إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا**﴾[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة**»[2]. وقال ليهود: «**أنا أولى بموسى منكم**»[3].

وكما أن الرسالة الخاتمة امتدت بآفاقها الرحيبة الى الماضي، فاعترفت برسالات الأنبياء السابقين في التاريخ، فإنها اختصت بعمومها فهي لسائر البشر وليست خاصة بقوم معينين وهي دين الحاضر والمستقبل قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾[4].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**وكان النبي يبعث الى قومه خاصة، وبعثتُ الى الناس عامة**»[5] وفي رواية مسلم «**وأرسلت الى الخلق كافة وخُتم بي النبيون**»[6].

فالرسالة الخاتمة دعوة لوحدة الانسانية تحت راية التوحيد لا تعترف بالطبقية، ولا بالعنصرية، ولا باختلاف اللون والعرق واللغة، بل هي تتجاوز كل ذلك تحقيقاً للمساواة التامة بين البشر، وتوحيداً لموكب الايمان في طريقه الى الله.

ونظراً لأن رسالة محمد ﷺ عامة، تمتد في المكان لتشمل المعمورة، وفي الزمان لتستغرق ما بقي من تاريخ الانسان، فقد تكفل الله بحفظها من التحريف والتبديل والضياع، وهكذا حفظ كتاب الله الخالد «القرآن الكريم» وحفظت سنة المصطفى ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، فصار بوسع الأجيال المتلاحقة

---

(١) سورة آل عمران، آية ٦٨.
(٢) سورة صحيح البخاري ٤/١٤٢ واللفظ له وصحيح مسلم حديث رقم ٢٣٦٥.
(٣) متفق عليه (صحيح البخاري ٤/١٢٦) وصحيح مسلم حديث رقم ١١٣٠.
(٤) سورة سبأ، آية ٢٨.
(٥) صحيح البخاري ١/٨٦.
(٦) صحيح مسلم ١/٣٧١ حديث رقم ٥٢٣.

أن تعرف حقيقة الاسلام وتفاصيل العقيدة والشريعة كما عرفتها الأجيال الأولى دون اختلاف.

قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾[1].

ومعجزة الرسالة الاسلامية الخالدة هي القرآن الكريم، فهي معجزة دائمة باقية، ظاهرة الإعجاز في كل زمان ومكان، وكانت رسالات الأنبياء من قبله موقوتةً، محدودة بالزمان والمكان، فكانت معجزاتهم حسية تهدف الى قهر وتعجيز من يحضرها في حينها، ويشهدها عند حدوثها، كما هو ظاهر من معجزات موسى عليه السلام، حين ضرب البحر بعصاه فانفتح أمامه طريق العبور وسط الماء، وكما هي معجزات عيسى عليه السلام حين يبرىء الأعمى والأكمه ويحيي الموتى بإذن الله... فمن لم يشهد هذه المعجزات فإنه لا يذعن للحق ولا يتبع النبي.. أما معجزة الرسول الكريم فكانت معجزة خالدة لخلود الرسالة، باقية ـ بحفظ الله ـ بقاء الحياة، تذعن لها العقول المستنيرة والقلوب الواعية في كل زمان ومكان، ويتذوق بيانها وبلاغتها الفصحاءُ والبلغاء، فهي معجزة بيانية بلاغية تحدت العرب وقت النزول وبعده، وهم أمة البيان، فعجزوا عن إجابة التحدي عبر العصور[2]. وقد أشار المصطفى عليه الصلاة والسلام الى اختلاف معجزته عن معجزات الأنبياء من قبله فقال: (**ما من الأنبياء من نبي إلا قد اعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيت وحياً أوحى الله اليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**)[3].

وقد كثر أتباع الرسول ﷺ على مر القرون حتى بلغوا في الوقت الحاضر ربع سكان المعمورة، ولو أنهم التزموا بتعاليم النبي الكريم في عقائدهم وسلوكهم ونظمهم، وأدركوا مسؤوليتهم في الدعوة الى دين الله لفتح الله عليهم بركاتٍ

---

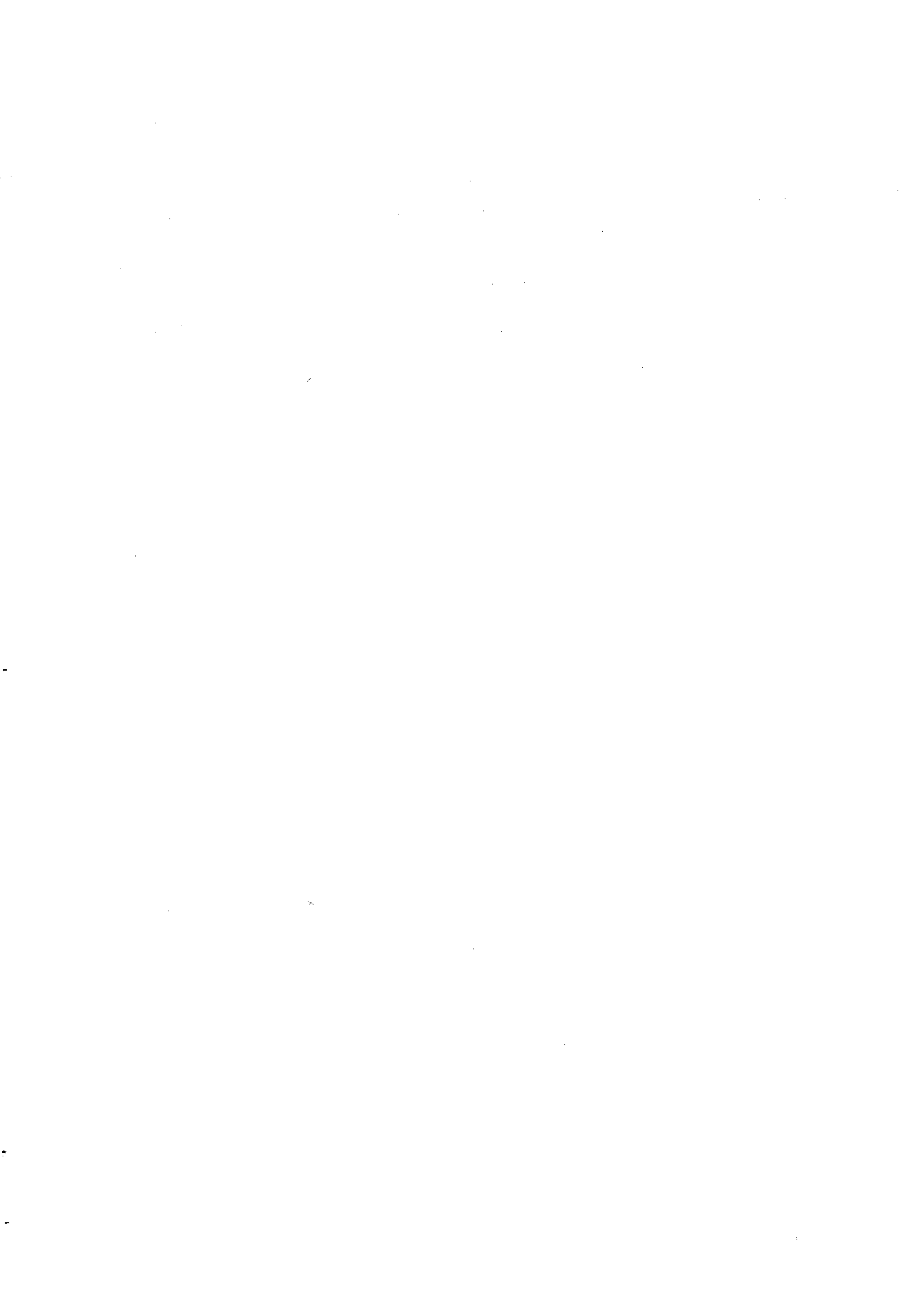
(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) انظر اعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم (صحيح البخاري ٩٧/٦، وصحيح مسلم ١٣٤/١ حديث رقم ١٥٢.

من السماء والأرض، ولحققوا السعادة لأنفسهم في الدنيا ونالوا مغفرة الله ورضوانه في الآخرة.

لقد قطع الاسلام بختم النبوات بنبوة محمد - ﷺ - الطريق أمام أدعياء النبوة، وضيّقَ مسالك نشر دعواتهم الباطلة بأن هيأ الأذهان لعدم قبولها، وكذلك قطع الطريق على الأفكار السلبية التي تدعو للإبقاء على الأوضاع الظالمة وعلى الشر والفساد لحين ظهور نبي مرسل أو إمام منتظر. فلم يبق أمام المسلمين إلا العمل الدائب وفق هدي النبي محمد ﷺ دون انتظار لوحي جديد.



القرآن معجزة الرسول الخالدة

القرآن هو كتاب الله المنزل على نبيه لفظاً ومعنى، وهو قطعي الثبوت لتواتر نقله، ولوعد الله بحفظه.

ولم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يعرف الكتاب ولا الايمان قبل أن يوحى اليه القرآن الذي جعله الله تعالى نوراً يهدي به عباده الى الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا، ما كُنتَ تدري ما الكتابُ ولا الايمانُ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادنا وإنك لتَهدي الى صراط مستقيم**﴾[1].

وقد سئل ابن مسعود رضى الله عنه: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به الى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به الى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[2].

وتدلنا رواية أحمد والنسائي على أن عبدالله بن مسعود تعلم هذا التعريف

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢

(٢) أخرجه رزين موقوفاً على عبدالله بن مسعود، ومعناه عند الإمام أحمد والنسائي مرفوعاً الى النبي ﷺ.

للصراط المستقيم من رسول الله ﷺ، فقد قال ابن مسعود: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: هذا سبيل الله. ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه، وقرأ: **﴿وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**.

ومعنى كلام ابن مسعود أن النبي ﷺ ترك أصحابه بعد أن أخذ بأيديهم الى طرف الطريق المُفضية الى الجنة، فتركهم على المحجة البيضاء والسنة الزهراء، لكن هذه الطريق تحتاج الى الاستقامة عليها حتى النهاية، وعدم سلوك أية جادة مما يتشعب عنها نتيجة الافراط والمبالغة والتعمق، أو نتيجة التفريط ورِقّة الدين واتِّباع الهوى حيث يحاول أهل الأهواء دعوتهم واغراءَهم بسلوك الطرق المتفرقة والشاذّة التي تبعد بهم عن الجنة، فطريق السنة هو أقصر الطرق الى الجنة.

والوحي: بمعنى، الايماء، وهو لغة: الإعلام بالشيء سراً، وشرعاً هو الإعلام بالشرع وهو خاص بتعليم الله للأنبياء بواسطة مَلَك، أو بدون واسطة إما بإلقاء المعنى في النفس وهو الإلهام، وإما بالكلام من وراء حجاب أي بدون رؤية كما حدث لموسى ـ عليه السلام ـ.

وكان الرسول ﷺ يشاهد جبريل ـ عليه السلام ـ إما على صورته الحقيقية وهذا نادر، وإما متمثلاً في صورة بشر فيكلمه فيعي ما يقول، وهو أيسر الوحي عليه، وتارةً لا يراه بل يسمع عند قدومه دويّاً وصلصلةً شديدة، فيدرك من عنده من الصحابة أنه يوحى اليه بثقل بدنه وتفصد جبينه عرقاً، وأحياناً بسماع دوي كدويِّ النَّحل عند وجهه، وكان ﷺ يسمع صلصلة الجرس ويجدُ من ذلك شدةً، فإذا قضى جبريلُ رسالةَ ربه عاد النبي ﷺ الى حالته العادية، ونظراً لحب النبي ﷺ حفظَ القرآن ولشدة الوحي عليه من ناحية أخرى، فإنه كان ينازع جبريل القراءة ولا يصبر حتى يُتمَّها مسارعةً الى الحفظ لئلا ينفلت منه شيء، فنزل قوله تعالى: **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنَّ علينا جمعه وقرآنه﴾**(1).

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضى الله عنها: «أول ما بدىء به رسول

---

(1) سورة القيامة، الآية ١٦.

الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح»[1].

ويدل حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ على أن الرؤيا الصادقة للنبي ﷺ كانت وحياً، وكانت أول الوحي إيناساً للرسول ﷺ فهي أخف وقعاً على نفسه البشرية كما أنها تهيئة لتلقي شدائد الوحي في اليقظة.

والوحي المحمدي نظير الوحي الى الأنبياء قبله لا تباين فيه قال تعالى: **﴿إنَّا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده﴾**. وكان رسول الله ﷺ قد حبِّبَ الله اليه العزلة في غار حراء يتعبد متبعاً الحنيفية، وهي دين ابراهيم عليه السلام، فيبقى في الغار مدة شهر، ثم يرجع الى أهله ليتزود بالطعام أخذاً بالأسباب، وقد تكررت خلوته في غار حراء حتى جاءه الوحي وهو في الغار معتكفاً في شهر رمضان، وقد طلب منه المَلَكُ أن يقرأ. فأجاب: ما أنا بقارىء، إذ كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ. والأمية من دلائل معجزته، وأبعد الله تعالى بها عنه شبهةَ الأخذِ عن الكتب السابقة، فأمسك به الملكُ وضمَّه ضماً شديداً مكرراً طلبه منه أن يقرأ. ثم أوضح له أن يقرأ عن ظهر الغيب لشيء لم يسبق له حفظه، بل يتعلمه في الآن بأمر الله، وهي الآيات الخمس من صدر سورة العلق ـ وهي أول ما نزل من القرآن على الاطلاق، ونزل باقي سورة العلق بعد ذلك بسنين، وأما أول سورة نزلت بتمامها فهي الفاتحة على المشهور ـ فرجع النبي ﷺ بهذه الآيات الخمس يرتجف قلبه فطلب من زوجه أن تدثره، ففعلت حتى ذهب عنه الفزع، وأخبرها الخبر، ولم يكن ذلك عن شك بما أوحي اليه، بل للمفاجأة التي لم يكن يتوقعها، ولما أبدى لخديجة رضي الله عنها خشيته أقسمت له أن الله لا يعرِّضه للذل والهوان والفضيحة، وذكَّرته بحسن أخلاقه، فهو يصل الرحم ببرٍّ أقربائه والإحسان اليهم، ويعين المحتاج، وينال معالي الأمور والسبق الى المكرمات، ويقري الضيف، ويعين صاحب الحق على بلوغه فمن كان هذا شأنه لا يخزيه الله بل يرفعه مكاناً عليًا. ثم إن خديجة انطلقت به الى ورقة بن نوفل، وكان نصرانياً عالماً بالعربية والعبرية، وله اطلاع على التوراة

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم (فتح الباري ١/٢٣).

والانجيل حيث كان متمكناً من نقل التوراة من العبرية الى العربية، وكان شيخاً قد صقلته التجارب والنظر في الكتب. فلما سمع من النبي ﷺ خبر ما رأى أدرك حقيقة الأمر فصرَّح بأنه وحيٌ مثل الوحي الذي تلقاه موسى عليه السلام، وتمنّى ورقة لو عاد شاباً ليتمكن من نصرة النبي ﷺ على قومه حين يخرجوه من مكة، ثم أدرك استحالة ذلك لشيخوخته فتمنى لو يدرك ذلك اليوم فقط، واستغرب النبي ﷺ من كلام ورقة فقومُهُ يحبّونه وينادونه بالصادق الأمين فكيف يخرجونه من بلده!، فسأل ورقة: أو مخرجيَّ هم؟ فبينَّ ورقة: أن هذه هي سنة الحياة؛ فما من نبي دعا قومه الى نبذ الجاهلية وتوحيد الله بالعبادة والطاعة الا عادَوه، وآذَوه.. وتُوفي ورقة.. وانقطع الوحي فترة ـ قال الشعبي إنها سنتان ونصف ـ وحزن النبي ﷺ على انقطاعه حتى عاوده الوحي آمراً له بالدعوة والانذار ﴿**يا أيها المدثر، قم فانذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر**﴾[1]. وكان ذلك في بيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ.

وهكذا بدأت مرحلة الرسالة وقد سبقتها ثلاث سنوات هي مرحلة النبوة. ومع نزول الوحي المحمدي عرف البشر مصدراً للتلقي والعلم عن الله عزّ وجلّ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تكفل الله بحفظه لينير لأجيال العالمين الطريق الحق ويهديهم الى الصراط المستقيم صراط الله العزيز الحميد.

---

(١) سورة المدثر، الآية ١ ـ ٥.

تكفل الله بحفظ القرآن

وقد تكفل الله بحفظ القرآن الكريم من أن يُزاد فيه مـا ليس منه، أو يُنقص منه ما هو من أحكامه وحدوده وفرائضه، فهو الكتاب الخالد المحفوظ بحفظ الله لـه على تعـاقب الزمـان واختلاف المكـان، فما دام القـرآن هو دستـور الرسـالـة الاسلامية، وما دامت الرسالة الاسلامية لكل البشر، في كل الأزمـان والأصقاع، فـإن حفظ القرآن وخلوده لازم ودائم دوام الـرسالـة نفسها. قـال تعالى: **﴿إنـا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾**[1].

ونظراً لطبيعة الاسلام التي تحمِّل الانسان المسؤولية، وتطلب منه بذل الجهـد في الـوصول الى الحق والحفـاظ على المبـدأ والجهاد في سبيـل الرسـالة، فـإن الله تعالى هيّأ للقـرآن الكريم كـل لوازم حفـظه وخلوده، فمنذ كـان الوحي الأمـين يلقي الآيات القرآنية على سمع النبي الأمين، بيَّنت آيـات كريمـة أن الله يتكفل بحفظ النبي لهـذه الآيات ونبهت الـرسـول الى أن لا يسـترسـل في بـذل الجهـد العنيف في الانتباه والتحفز النفسي المـرهق والشد العقـلي الكثير خـوفاً من تفلت آيات الوحي منه وعدم القدرة على حفظها. . . قال تعالى: **﴿لا تحرِّك به لسانك لتعجل به إنَّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه﴾**.

لقد حفظ النبي ﷺ القرآن الكريم، وكان جبريل يتعاهده به ويعرضـه عليه

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

في رمضان من كل عام، وكان النبي ﷺ يملي ما ينزل عليه من الآيات على الكُتَّاب من الصحابة منذ المرحلة المكية.

وقد بلغ عدد كُتَّاب الوحي تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير بن العوام وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وأبي بن كعب ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت. ومعاوية وزيد كانا أكثر التصاقاً بهذه المهمة الخطيرة، وكانت الكتابة في الغالب على قطع الجلد وأكتاف العظام وجريد النخل وصفائح الحجارة، إذ لم يكن البردي متوفراً آنذاك في الحجاز.

وكان كتّاب الوحي يحتفظون بما يكتبونه عندهم، ولم تكن ثمة نسخة عند الرسول ﷺ نفسه، وقد جمع القرآن أربعةٌ من الأنصار هم أبي بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد[1] من الصحابة في حياة الرسول ﷺ، ولكن كانت الرقاع متفرقة بينهم، وكانت بمجموعها تشتمل على نص القرآن الكريم كاملاً كما أملاه الرسول ﷺ، وكما كان محفوظاً في صدور الكثيرين من الصحابة الى حد التواتر.

وقد حظي بعض الصحابة بالعرضة الأخيرة للقرآن الكريم حيث عرض جبريل القرآن على الرسول ﷺ عام وفاته في رمضان مرتين، وعرضه الرسول على بعض الصحابة ومنهم زيد بن ثابت، وميزة هذه العرضة أنها تمثل نص القرآن الخالد دون الآيات التي نُسخت تلاوتها.

وكان هذا مما رشح زيد بن ثابت للقيام بجمع نسخة كاملة من القرآن الكريم بأمر من الخليفة أبي بكر الصديق تنفيذاً لاقتراح قدمه عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما).

قال أبو بكر لزيد: (إنك رجلٌ شابٌّ عاقل لا نتهمُكَ، وقد كنت تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ فتتبَّع القرآن فاجمعْهُ)[2]. فقام زيد بهذه المهمة بكل دقة، واعتمد على ما كُتب في حياة الرسول ﷺ على أن يشهد شخصان بأن المكتوب

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ٩/٤٧ وكتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت ٧/١٢٧.

(٢) صحيح البخاري ٦/٩٨ وانظر التفاصيل في الاتقان للسيوطي ٧٦.

من إملاء الرسول ذاته وأنه جزء من التنزيل في صورته النهائية.

وهكذا تم الجمع الأول للقرآن الكريم في خلافة الصديق، وانتقل المصحف من الصديق الى عمر بن الخطاب الذي أودعه لدى حفصة أم المؤمنين عند استشهاده. فلما بويع عثمان رضى الله عنه بالخلافة قام بالجمع الأخير معتمداً على المصحف الذي عند حفصة مع تشكيل لجنة من زيد بن ثابت الذي تولّى الجمع الأول ومعه عبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، ويلاحظ أن الثلاثة الأخيرين من قريش، في حين أن زيد بن ثابت أنصاري ويفسر طبيعة تكوين اللجنة ما ذكره عثمان من قاعدة العمل: (ما اختلفتم فيه وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم).

وقد أتمت اللجنة عملها بنجاح ونسخت ستة مصاحف وزعت أربعة منها على مكة والشام والكوفة والبصرة، وأبقوا المصحف الخامس في المدينة والسادس لدى عثمان... وصارت المصاحف تنقل عنها عبر القرون التالية ويقال لرسمها (الرسم العثماني) نسبة الى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد استمر علماء المسلمين طيلة القرون يبذلون جهوداً عظيمة في خدمة المصحف، بإضافة النقط والشكل الى الرسم العثماني الذي كان خالياً منهما، ويرجع الفضل في ذلك الى أبي الأسود الدّؤلي الذي وضع النقاط فوق الحروف لتمييزها، والى نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني اللذين وضعا الحركات فوق الحروف لمنع اللحن فيها، ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي ليجعل الشكل على صورته الحالية.

ولم تقتصر جهود العلماء في خدمة المصحف على النقط والشكل وإنما عَرَّفوا بمواضع الوقف والابتداء، ووضعوا العلوم المتنوعة لخدمته مثل التفسير وعلوم القرآن والتجويد ومعرفة القراءات وشرح غريب القرآن وكتب إعراب القرآن. فتكونت مكتبة نفيسة في العلوم القرآنية ولا زال اللاحقون يضيفون فيها الى جهود السابقين تحقيقاً لإرادة الله في حفظه وبيانه.

وقد اثار حفظ القرآن بهذا الاتقان على مر الأزمان دهشة وإعجاب المنصفين من علماء الشرق والغرب فقال لوبلوا: «من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من

تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة».

إنَّ هذه الجهود التي سخرها الله تعالى لحفظ القرآن تحقيقاً لوعده قد أُفلحت في إيصال النص القرآني كاملاً الى الأجيال المتعاقبة حتى اليوم، في الوقت الذي وقع التحريف على سائر الكتب السماوية الأخرى والتي كتبت بعد أزمان طويلة من حياة أنبيائها.

لقد ظل القرآن الكريم يُغذِّي عقول وأرواح المسلمين، ويدخل الطمأنينة والقدرة على مواجهة صعاب الحياة الى نفوسهم، ويذكي فيهم الطموح الى المعرفة والاندفاع لبناء الحضارة وتشييد المدنية، ويهيء لهم أسباب ذلك كله، بما حواه تشريعه من قوانين الأخلاق، ومبادىء الاجتماع، وإقرار العدل، وتحقيق السلام في داخل النفس وفي إطار المجتمع، فضلاً عن حفاظه على اللغة العربية التي توحِّد أمة الاسلام، وتسهم بآدابها في توحيد ثقافتهم ومقاييسهم الخلقية والاجتماعية وأذواقهم الأدبية والفنية، فلا غرابة اذا ما عبَّر مفكر غربي هو الدكتور موريس عن إعجابه بقوله (إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية الأزلية لبني البشر).

أثر القرآن في تبصير الانسان

إن القرآن يفتح للمؤمن آفاقاً بعيدة لاستشراف الحق والخير اذا سلك العبد سبيل الهداية ومجاهدة النفس، بإلزامها المعروف وتجنيبها المنكر، أو بتعبير آخر بإقامتها على السنّة التي سنّها محمد ﷺ وتنفيرها من البدعة، فهذه المجاهدة للنفس والأخذ بها في مسالك الهداية والنور تُفضي الى انفساح الآفاق أمام النفس لزيادة الصعود والارتقاء والاشراق.. فكلما زادت المجاهدة قويت البصيرة وعظمت معرفة الانسان بالله ثم بالنفس وبالعالم من حوله.

وفعِلُ الأوامر واتباع المواعظ تُفضي الى الأجر العظيم في الدنيا والآخرة، وتُفضى الى زيادة الهداية والاستقامة على نهج الحق.

لقد علَّم الله تعالى عباده المؤمنين أن يدرسوا أنفسهم، ويحللوا دوافع سلوكهم، ويتبصروا في خطوات النفس، ويستشرفوا نوايا أعمالها. وكانت آيات القرآن الكريم تتابع في رسم منحنيات النفس وبيان مكامن القوة ومواطن الضعف فيها قال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾**[1] وقال: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾**[2] وقال: **﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً، وإذاً لآتيناهم من لدّنا أجراً عظيماً**

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٢) سورة محمد، الآية ١٧.

ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾[1]. فكان هذا التوجيه دافعاً لظهور مدارس علم النفس في الاسلام؛ ذلك العلم الذي زرع المسلمون الأوائل جذوره وأهمل الخلف تعهد تلك الجذور.. فلم يصل غاياته إلا في ظل حضارة الغرب ومفاهيمها، مما حرفه عن الطريق الأصيل الذي وجه اليه القرآن أتباعه، وبهذه الصورة الجاهلية استورده المسلمون فيما استوردوا من ثقافة الغرب، مما كان له أثر خطير في تشويه صورة الانسان ودوافع سلوكه لدى مدرسة التحليل النفسي الفرويدية.

إنَّ الخواطر التي تبعث على ارتكاب الجريمة تبدأ بتسويل من النفس لتطويع المجرم، قال تعالى على لسان أبي يوسف عليه السلام **﴿بل سوَّلت لكم أنفسُكُم أمراً فصبرٌ جميل﴾**[2] ومن يقرأ قصة يوسف عليه السلام في القرآن يجد تحليلاً دقيقاً لكوامن الغَيرة والحسد في نفوس إخوة يوسف، ويجد عواطف الأبوة والرحمة والحب والأمل بالله وعدم اليأس من رَوحه في نفس يعقوب، ويجد تحليلاً لشخصية بعض النساء ممن ينتمين الى طبقة الحكم بمصر في ذلك العصر، بل ويقرأ تعبيراً للرؤيا التنبؤية التي هي جزء من الوحي.

وفي قصة قتل قابيل لأخيه هابيل تطالعنا دوافع أول جريمة قتل على الأرض بسبب الحسد، عندما تقبل الله تعالى قربان قابيل ولم يتقبل من الآخر، وهنا يبرز الدافع النفسي لارتكاب الجريمة تلعب فيه النفس الأمارة دوراً بارزاً قال تعالى: **﴿فطوَّعت له نفسُه قتلَ أخيه فقتله﴾**[3] لكنه سَرعان ما ندم على ما فعل، فأراد أن يقدم الاحسان للقتيل، ولم يأبَ أن يتعلم من الغراب طريقةَ الدفن **﴿قال يا ويلتا أعجَزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءةَ أخي فأصبح من النادمين﴾**[4] وهكذا كشفت قصة ابني آدم عن النفس الأمّارة والنفس اللوّامة في لقطة سريعة وبعبارات وجيزة تكشف عن أغوار الإنسان وتعرفه بذاته. وبذلك تتقدم به نحو الرشد الفكري، بتكوين معتقداته

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) سورة يوسف، الآية ٨٣.
(٣) سورة المائدة، الآية ٣٠.
(٤) سورة المائدة، الآية ٣١.

الأساسية التي تمنع وقوعه في التيه، والاحساس بعبثية الحياة ولا جدوى الوجود، أو عدم معقولية العالم التي سقط ضحيتها الكثيرون من أبناء القرن العشرين، عندما ضاعت منهم حقائق الدين في تثبيت أهداف الخلق والحياة، وتحديد قضية مصير الانسان، وأخلاقيات السلوك المترتبة على تقرير قضية المصير **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنّكم الينا لا ترجعون﴾**[1].

إن منهج القرآن في تعريف الانسان بذاته يرتكز على الصراحة والحق، فيكشف عن جوانب سلبية كما يكشف عن جوانب إيجابية ويوضح أن جوانب السلب والإيجاب تكمن في أعماق النفس وتتعايش داخلها، وقد يظهر جانب على آخر ويطغى بقوته عليه ويبقى الجانب الآخر في أغوار الإنسان قال تعالى: **﴿ونفسٍ وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾**[2] وبيّن أن الطغيان يجرُّ الانسان الى الكفر والرغبة في الاستغناء عن الله قال تعالى **﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾**[3] وقال: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**[4] وقال **﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾**[5] وقال: **﴿قُتل الانسانُ ما أكفره﴾**[6] وكاشف القرآنُ الانسانَ بحقيقة وجوده، ومصدرِ متاعبه وصراعاته في هذه الحياة، وأنه مخلوق للمكابدة والتعب والنصب قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الانسان في كَبَد﴾**[7] فالدنيا دار امتحان وابتلاء وتمحيص، وعلى الانسان أن يسعى لخلاص روحه ونفسه، بتوحيد الله وطاعته وعبادته وشكره واستغفاره، قال تعالى: **﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى﴾**[8]. وقال تعالى **﴿كذلك نجزي من شكر﴾**[9] وقال تعالى **﴿استغفروا ربكم أنه كان غفاراً﴾**[10]وكما أن الانسان لديه الاستعداد للطغيان فإن لديه أيضاً قابلية على

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ١١٥.
(2) سورة الشمس، الآية ٧ ـ ٨.
(3) سورة العلق، الآية ٦ ـ ٧.
(4) سورة سبأ، الآية ١٣.
(5) سورة العاديات، الآية ٦.
(6) سورة عبس، الآية ١٧.
(7) سورة البلد، الآية ٤.
(8) سورة النجم، الآية ٣٩.
(9) سورة القمر، الآية ٣٥.
(10) سورة نوح، الآية ١٠.

الخضوع والاستخذاء قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿**فاستخفَّ قومه فأطاعوه**﴾[1] وهكذا فإن القرآن أنكر الطغيان كما أنكر الاستخذاء، وهما خلقان متلازمان في المجتمعات، فحيثما يوجد أحدهما يوجد الآخر، وليس من منجىً سوى الاستجابة لداعي الله في التزام الحق والعدل والرحمة والخير، قال تعالى: ﴿**ومن لا يُجب داعيَ الله فليس بمعجزٍ في الأرض**﴾[2] واذا أسرف الانسان على نفسه ونأى جنباً عن ربه، فإن باب التوبة مفتوح أمامه للعودة ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾[3].

إن ما جُبلت عليه النفس الأمَّارة من سوء يقتضي من الانسان الحذر منه ومدافعته، وإلا سقط في المحذور وارتكب جرماً بحق نفسه، أو بحقوق من حوله، أو بحق الله تعالى.

قال تعالى: ﴿**إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسوء**﴾[4] وقد لا يبدو السوء ظاهراً للعيان، بل مستوراً بالخديعة والمكر، مزخرفاً بالتزيين والتحسين، يحتاج الكشف عنه الى العلم والتثبت والعرض على كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ واجماع العلماء.

قال تعالى: ﴿**وزيَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾[5] وسمَّى القرآن هذا التزيين وسوسة كما في قول الله تعالى: ﴿**يوسوس في صدور الناس**﴾[6] وقوله: ﴿**فوسوس لهما الشيطان**﴾[7]. ولا شك أن قدرة الناس على معرفة الخير الخالص والحق المحض ليست واحدةً، بل يتبع ذلك بصيرتَهم ومعرفتَهم بالشرع وتمييزَهم للخير وللشر، فكلما تيقَّظت بصائرُهم وزادت تقواهم وعظمت معرفتهم بالشرع وحدوده، ازدادوا قدرة على تمييز نفحات الحق وخطرات الخير، من وساوس الشيطان وتزيينه ونفثات النفس الأمارة ومكايدها.

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٥٤.
(٢) سورة الاحقاف، الآية ٣٢.
(٣) سورة الزمر، الآية ٥٣.
(٤) سورة يوسف، الآية ٥٣.
(٥) الأنعام، الآية ٤٣.
(٦) سورة الناس، الآية ٥.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٢٠.

ولا عذر لمن غفل عن الله وأهمل التعرف على أحكام الشرع بادّعاء الجهل، فإن الله تعالى ذمَّ أولئك الذين يلتبس عليهم الخير والشر ويفقدون القدرة على الرؤية الصحيحة فقال تعالى: **﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾**[1] وقال: **﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾**[2].

وكيف يعذر من بلغته دعوة محمد ﷺ وفيها البيان والتبصير والمعرفة والتذكير، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ للشيطان لمةً بابن آدم، وللمَلَك لَمَّةً، فأما لَمَّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق، وأما لَمَّة المَلَك فايعاد بالخير وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمَدِ الله. ومن وجد الأخرى فليتعوَّذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدُكُم الفقرَ ويأمرُكُم بالفحشاء[3]﴾**»[4].

ولكن معرفة الخير والحق الذي يخطر بنفس المؤمن لا تتم إلا بمعرفة الدين عقيدةً وشريعةً، نظراً وتطبيقاً. لذلك أرسل الله الرسل لتبصير العباد وإنارة الدرب أمامهم **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾**[5].

خلُوُّ القرآن من التعارض:

ولا شك أن كلام الله تعالى وكلام رسوله المبلغ عنه يخلو من التناقض الذي قد يقع في كلام البشر. قال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآنَ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**[6] لأن علم الله تعالى محيط، وإنما يقع في التناقض من يقصر عن الإحاطة العلمية، أو يغفل عن جزئية فتشذ عن قاعدة يقعدها، أو استقراء يقوم به، وأما الله الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي لا يعزب عنه مثقال حبة في الأرض ولا في السماء، فمحال في حقه التناقض

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٠٤.
(٢) سورة فاطر، الآية ٨.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٦٨.
(٤) رواه الترمذي: السنن ٥/٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٥) سورة النور، الآية ٤٠.
(٦) سورة النساء، الآية ٨٢.

والاختلاف في القول، وكذلك رسول الله ﷺ فإن من المحال أن يتناقض في كلامه، ولا يدخل في ذلك أن ينسخ قولُه اللاحق قولَه السابق فإن النسخ وقع في الكتاب والسنة معاً في عصر التنزيل، ولكن قصور علم الانسان المتلقي عن الله ورسوله وعدم احاطته بالنصوص لكثرتها أو لعدم وصولها اليه أو لقصوره عن فهمها وحسن توجيهها توجيهاً صحيحاً. أو لقلة بضاعته اللغوية أو عدم إتقانه الصناعة النحوية، أو لعدم معرفته بقواعد إزالة التعارض الظاهري التي قعَّدها العلماء من المحدثين والأصوليين، مما عنونوا له بـ «تأويل مختلف القرآن» و «تأويل مختلف الحديث».

والمؤمن الواعي يتبع السلف الصالح في طرائق البحث والاستنباط والترجيح، وإلا تاهَ وسط الآف الروايات في مجلدات التفسير والحديث. فإن استغلق عليه فهم أمر عقدي أو شرعي فليقل كما علمنا ربنا تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

حول ما يزعم من وجود الاعجاز الرياضي في القرآن

قال تعالى: ﴿سأصليه سَقَر * وما أدراك ما سَقَر * لا تُبقى ولا تَذَر * لوَّاحةٌ للبشر * عليها تسعةَ عَشَر * وما جعلنا أصحابَ النّارِ الا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتهم الا فتنةً للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا ايماناً، ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، وليِقولَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يُضِل الله من يشاءُ ويهدي من يشاءُ، وما يعلم جنودَ ربِّك إلاّ هو، وما هي إلاّ ذكرى للبشر﴾[1].

لقد جاءت هذه الآيات في سورة المدثر بعد ذكر موقف الوليد بن المغيرة من الاسلام، وقوله عن القرآن ﴿إن هذا إلاّ سحر يؤثر﴾ وكان الوليد من رجالات قريش، كثيرَ المال والولد، حسنَ المعرفة بالشعر، وبأفانين الكلام، مما يجعله واعياً لكلام الله تعالى مميزاً له، لكنه آثر الكفر عناداً منه للحق، واستكباراً وبطراً وجحوداً للنعم العظيمة التي أنعمها الله عليه، مع أنه كان يطمع في المزيد من النعم، ولعله كان يطمع في النبوة بعد أن نالته حظوظُ الدنيا حتى شبع منها. فيكون الحسدُ أحدَ بواعث إنكاره لنبوة محمد ﷺ، فمضى يُعين قومه في دعايتهم ويوجههم فيها، مدعياً أن القرآن سحر يأخذه الرسول ﷺ عن غيره، ويؤكد لهم أنه قول بشر كما يذكر القرآن ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾[2] مع

(١) سورة المدثر، الآية ٢٦ ـ ٣١.
(٢) سورة المدثر، الآية ٢٥.

أن المغيرة كان يعرف تماماً أنه ليس من كلام البشر، فقد وَضّحَ لقومه مباينةَ القرآن لكلام الكُهّان ومفارقتَه لشعر الشعراء، ومن هنا توعده الله تعالى بأن يصليه سقر وهو اسم علمٍ لبابٍ من أبواب جهنم، نارُهُ لا تُبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً، بل تحرقه كلما تجدَّد خَلْقُه ليخلد في العذاب، وهي «لوَّاحة للبشر» تحرق البشرة، التي تتجدد دوماً، فتبقى حاسة المعذب كاملة، فلا تخف معاناته على الدوام، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾**[1].

وقد أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بأن سقر عليها تسعةَ عشرَ خازناً من الملائكة. وذلك أن أبا جهلٍ ظنهم رجالاً فزعم أن عدد قريش كثير، وأنهم يغلبون تسعةَ عشرَ رجلاً، فبيَّن تعالى أنهم ملائكة، وأن ذكر عددهم المحدود فيه فتنة للمشركين الذين استقلّوا عددهم وطمعوا في غلبتهم، وبيَّن تعالى أن عدد خزنة النار مذكور أيضاً في التوراة والانجيل، وأن هذا الاتفاق في العدد لأنَّ كُتُب الله تعالى يصدِّقُ بعضُها بعضاً، فيزيد يقينُ أهل الكتاب والمؤمنين بصحة نبوة أنبيائهم وصدق كتبهم، وأما المُشركون فيزدادون شكاً ونفاقاً في حقيقة البعث والنار التي وصفها القرآن بأنها تذكرة للبشر **﴿وما هي إلاّ ذكرى للبشر﴾**[2].

ويتضح من النص القرآني وكلام السلف في بيان معناه أن عدد خزنة النار هم تسعةَ عشرَ خازناً، وأنهم من الملائكة، وأن الرقم «تسعة عشر» ليس لُغزاً غامضاً ليأتي الباحثون في القرن العشرين، فيدخلون القرآن في الكمبيوتر ثم يحلُّون لغز الرقم، وعندها يتجلَّى لهم ما لم يتجلَّ لرسول الله ﷺ من أوجه الإعجاز القرآني - فيما يزعمون -!!!

فقد ظهرت خلال العقود الأخيرة دراسات مبنية على أن ثمة إعجاز رياضي في القرآن، وأن هذا الاعجاز كشف عنه الكمبيوتر حيث أظهر أن ثمة خصوصية للرقم «تسعةَ عشر» في القرآن حيث تبين من الدراسات التي استعانت بالعقل الآلي أن عدد حروف البسملة تسعة عشر حرفاً، وأن كل كلمة منها يتكرر ذكرها

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٦.

(٢) سورة المدثر، الآية ٣١.

في القرآن تسع عشرة مرة، وأن فواتح السور وردت في تسع وعشرين سورة، ومجموع حروف الفواتح أربعة عشر حرفاً فيكون رقم جمعها سبعة وخمسين، وهو من مضاعفات رقم تسعة عشر.

ومن خلال التركيز على رقم تسعة عشر يظهر أن بناء القرآن يقوم على هذا الرقم قصداً مما يدل على الاعجاز الرياضي حيث يستحيل على إنسان أن يقيم نظماً وفق رقم تسعة عشر ومضاعفاته مما يدل على الإعجاز.

وبناء على هذه المقدمات وصل الباحثون المعاصرون الى نقض كلام المفسرين القدامى، بل ومعارضة النص القرآني الذي بيَّن أن خزنة النار تسعةَ عشر مَلَكاً، بالقول بأن التسعة عشر التي ذكرت إنما هي عدد حروف البسملة وليست عدد خزنة النار.

وقد يبدو للسذَّج أن الكشف عن أوجه جديدة للإعجاز القرآني تخدم قضية الاسلام والايمان في هذا العصر. ولكن الصحيح أنها تزيد من الحيرة والشك عندما تبنى استنتاجاتها على أسس واهية ومصادفات واتفاقات اعتباطية ساذجة، فالقرآن لا يحمل ألغازاً يكشف عنها الكمبيوتر، ونبي الاسلام عليه الصلاة والسلام لم يكن يجهل معاني القرآن وطريقة نظمه وأوجه إعجازه، ولم يُخبِر بأن ثمة أوجه للاعجاز سيكشف عنها الزمان.. والحق أن ليس فيما ذكره الباحثون بواسطة الكمبيوتر ما يدل على وجود إعجاز رياضي، وإنما هي بحوث تلفيقية لجأت الى ملاحظة ظواهر متكررة بالنسبة للرقم تسعة عشر، ويمكن أن يلاحظ هذا الاطراد والتكرر بالنسبة لأرقام أخرى فلا تبقى ثمة خصوصية للرقم (تسعة عشر)، وسواء أكان الحافز على مثل هذه الدراسات الرغبة في الإثارة والتجديد، أو الارتباط بجهات مشبوهة يعني الرقم تسعةَ عشرَ عندها معنىً تحيطه الأسرار والألغاز، فإن على المسلم أن يحذر هذه الدراسات ولا يطمئن الا لكلام أهل العلم المعروفين بالصدق والغيرة على دين الله.

إن إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه، وقد تحدَّى العرب ـ وهم أمة البلاغة والفصاحة ـ أن يأتوا بمثله فعجزوا، ودام التحدي عبر تاريخ الاسلام دون أن يحقق الأعداء استجابةً ناجحة للتحدي. ثم إنَّ شريعة الاسلام بما تضمنته من أحكام عادلة وعبَّرت عنه من رؤية شاملة لمصالح البشر وتقدير لآمالهم

وآلامهم، وتحديد دقيق لعلاقاتهم، وإبراز للحق والواجب، وكل ذلك بُني على مراعاة المصلحة والتيسير للناس ورفع الحرج عنهم ومنع التعسف والظلم. وكذلك فقد مضى على نزول القرآن أكثر من أربعة عشر قرناً دون أن يظهر العلم المتطور والبحث المتقدم أية تناقضات بين ما ذكره القرآن وما كشف عنه علم الانسان النظري والتجريبي فهذا كله دليل على أن القرآن من عند الله وليس كلام محمد ﷺ، بل إن الفرق واضح بيّن بين أسلوب القرآن وأسلوب الرسول كما يظهر في أحاديثه. ومعروف لدى نقاد الأدب استحالة أن يكتب الكاتب بأسلوبين متمايزين تمايز أسلوبي القرآن والحديث. وهذه الأوجه تغني عن محاولة افتعال أوجه أخرى للإعجاز مثل فكرة الاعجاز الرياضي التي لم تُبنَ على حقائق العلم بل استغلت موافقات معينة لخدمة أهداف مريبة سواء اتصلت بتدعيم مكانة الرقم تسعة عشر عند البابيين والبهائيين، أو بالكسب المادي عن طريق الإثارة وادعاء التجديد مما يؤدي الى رواج الكتب المنشورة ـ وانخداع السذج بما فيها من معلومات غريبة ظاهرها خدمة الايمان، وباطنها التشكيك والنقض لأقوال السلف بل ولصريح القرآن.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من تفسير القرآن بالرأي دون دليل فقال: **«من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النار»**[1] وقال عليه الصلاة والسلام: **«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[2].

إنَّ القرآن معجزة بيانية، وإن تشريعاته المحكمة دليل على أنه من عند الله ولكنه ليس المعجزة الوحيدة لمحمد ﷺ كما ذهب الى ذلك البعض من مؤلفي السيرة النبوية المعاصرين[3]. بل ثمة معجزات أخرى ثابتة بأحاديث صحيحة لا يمكن ردها أو تأولها، وليس من داع لإنكارها سوى الخضوع لمنهج البحث المادي الذي ينكر ما وراء الطبيعة من عالم الغيب والروح.

وفيما يلي أعرض للمعجزات الحسية التي جرت في عصر السيرة.

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (سنن ٢/١٥٧).
(٢) رواه الترمذي (سنن ٢/١٥٧).
(٣) منهم الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد).

معجزات الرسول الحسية

كان المشركون يطالبون رسول الله ﷺ بالآيات الحسيّة التي تخرق سنن الحياة وقوانين الطبيعة، وكانوا يقصدون من وراء طلبهم إظهار عجزه عن ذلك والسخرية منه، ولعل المؤمنين ـ وقد ضاقت بهم السبل ـ كانوا يتطلعون الى الاستجابة لطلب المشركين رجاء إيمانهم، خاصة وأن المشركين كانوا يحلفون ويؤكدون بأنهم سيستجيبون للاسلام حال ظهور المعجزات الخارقة. لكن الاسلام لم يعتمد على المعجزات الخارقة في اجتذاب قلوب الناس الى الايمان، بل اعتمد على اقناع عقولهم واجتلاب قلوبهم وملء وجدانهم بمعاني القرآن، الذي يمثل المعجزة الدائمة الباقية، مما يمكن الأجيال المتعاقبة من التأثر بهذه المعجزة البيانية، وما تحمل من معاني الحق والصدق، وما تزخر به من سمو التشريع، وحسن الارشاد الى مكارم الأخلاق، فضلاً عن قوة التأثير الروحي والنفسي في السامع والقارىء

وقد أخبر الله تعالى بأن المشركين لن يؤمنوا حتى لو جاءتهم المعجزات الخارقة، لأن الله تعالى يقلِّبُ افئدتهم وأبصارهم، ولا يريد هدايتهم، فهم أهل عناد واستهزاء وجحود للحق، ومثلهم لا يستسلم للحق مهما وضح لهم، وسوف يجدون لكل آية تأويلاً، ولكل معجزة تفسيراً، إذ إنهم طبعوا على الكفر والتمرد على الله تعالى، ومن كان هذا حاله لا يعدم التأويلات والتفسيرات والظنون والتقولات قريبة وبعيدة. قال تعالى: **﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن**

جاءتهم آيةٌ ليؤمنُنَّ بها قل إنما الآياتُ عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرَّة ونذرُهُم في طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزَّلنا اليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون﴾[1].

وما دامت الهداية بيد الله وحده، فمن لم يشأ أن يهديه لا يهتدي حتى لو رأى الملائكة عياناً وكلمه الموتى جهاراً، وعاين كل شيء معاينةً فانجلى له الأمر تماماً، وهذا فيمن كتب الله عليهم الشقاء، وأما من كتب لهم السعادة والايمان فهم الذين استثناهم الله تعالى بقوله: **﴿إلاّ أن يشاء الله﴾** وقد أكد القرآن على هذه الحقيقة في آيات كثيرة.. فقال تعالى: **﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين * وقالوا لولا أُنزل عليه مَلَك ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضي الأمرُ ثم لا يُنظرون﴾**[2].

وهنا يكشف الله تعالى عن حقيقة أخرى هي سنته في الكافرين إذا جحدوا المعجزة الحسية، فهو يعجِّل لهم العقاب ولا يفسح لهم الوقت للتوبة، فكان في عدم إجابة طلب المشركين رحمةً بهم وانظاراً لهم ليثوب الى الحق من كتبت له السعادة والايمان، وأما أهل الشقاء فلن تغير المعجزاتُ مصيرَهم مهما بلغت عظمتُها واتسع خرقُها لقوانين الحياة والطبيعة، كما قال تعالى في آية أخرى: **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكرت ابصارُنا بل نحن قوم مسحورون﴾**[3].

وهكذا حتى لو استجاب الحق لطلب المشركين المعجزات الحسية، فإنهم سيتأولونها ويقيسونها بأعمال السحرة، ويبطلون حجيتها عناداً واستكباراً، تحقيقاً لما كتبه الله عليه من الشقاء.

وهكذا فإن المعجزة القرآنية انفردت بالظهور والتأثير الكبير، لما تتسم به من خلود يتسق مع خلود الرسالة الاسلامية وعمومها، أما بقية المعجزات الحسية

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٩ ـ ١١١.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٧ ـ ٨.

(٣) سورة الحجر، الآية ١٤ ـ ١٥.

فقد ظهرت غالباً للصحابة رضوان الله عليهم، وكان أمر النبي ﷺ لهم بيِّناً، وقد استجابوا لدعوته قبل ظهورها، فلم تكن سبباً في إيمانهم، وإن كان اطلاعهم على أحواله عليه الصلاة والسلام وكرامتِهِ على الله تعالى مما يزيد في انشراح صدورهم وطمأنينة قلوبهم، بل كثيراً ما وقعت المعجزات الحسية لإزالة الكرب عنهم أو سد جوعهم أو إلحاق الهزيمة بعدوهم. أما المعجزة القرآنية فكانت تحدياً مباشراً للكفار وسبباً في إسلام من أسلم منهم بالإضافة الى تأثير شخص النبي ﷺ في حسن خلقه الجم، ولطف حديثه، وكمال معانيه وسدادها.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتاب النبوات: «والقرآن مما يَعلَمُ الناس ـ عربُهم وعجمُهم ـ أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظُهُ آيةٌ، ونظمُهُ آيةٌ، وأخبارُهُ آيةٌ، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، واذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم»[1].

وهذا تفصيل جميل لأوجه الاعجاز القرآني لفظاً ومعنىً، وقد بيَّن الرسول ﷺ مكانة المعجزة القرآنية في دعوته، وأنها الغالبة على سائر معجزاته فقال: «**ما من الأنبياء إلاّ أعطي من الآيات ما مِثلُهُ آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله اليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[2].

ورجاؤُهُ ﷺ أن يكون أكثر أتباعاً ممن سبقه من الأنبياء لخلود رسالته، وخلود معجزته القرآنية التي تكفل انضواء اتباع جدد تحت رايته حتى قيام الساعة.

قال تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الأنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً﴾**[3]. وقال: **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو**

---

(١) ابن تيمية: النبوات ١٦٤.
(٢) متفق عليه (صحيح البخاري ٩/٣ وصحيح مسلم ١/١٣٤).
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

فهل أنتم مسلمون﴾[1] وقال تعالى: **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**[2] وقال تعالى: **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾**[3] وقال: **﴿أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾**[4].

وهكذا تحدّى القرآن الأجيال البشرية عبر القرون بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله، أو بحديث مثله، فلم يجب أحد على تحديه، فبان أنه أنزل بعلم الله.

إن إنكار البعض للمعجزات الحسية غير القرآن لا وجه له، فقد ثبتت بالأحاديث الصحيحة المستفيضة، فمعناها متواتر من حيث الدلالة على وقوع معجزات للنبي ﷺ فيها خرق للناموس الطبيعي، كما في حادثة شق الصدر في العام الخامس من عمره ﷺ. ثم تكرر ذلك قبل الأسراء والمعراج وهو في الثانية والخمسين من عمره، وكلتا الحادثتين ثابتة في الصحيحين. فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طُست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون ـ يعني ظئره ـ فقالوا: ان محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[5].

وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطُست من ذهب ممتلىء حكمةً وايماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم

---

(١) سورة هود، الآية ١٤.

(٢) سورة يونس، الآية ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٣.

(٤) سورة الطور، الآية ٣٣.

(٥) رواه الامام مسلم في صحيحه ١/١٤٧.

أخذ بيدي فعرج بي الى السماء الدنيا»[1].

ولا شك أن خبر شق الصدر لا تتقبله عقول الماديين، أما المؤمنون بالغيب فهم يسلمون به تبعاً لتسليمهم بالوحي والنبوة؛ وهما خرق للقانون المادي، لا تقبله الفلسفات الحسية لأنه ظاهرة لا يمكن إخضاعها لتجاريب المختبرات، ولكن الإيمان بالغيب شرط الاسلام **﴿الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة﴾**[2].

كان المشركون إذاً يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات الحسية، واعدين بالإيمان إذا رأوا وسمعوا، ولم يعتمد منهج الدعوة المحمدية أسلوب المعجزات الحسية في هداية الناس الى الله ونبيه ورسالته اعتماداً كبيراً، ولكن السيرة المحمدية لم تخلُ من خرق للسنن الطبيعية، لكن الخرق كان يحدث أمام المؤمنين غالباً ولم يكن سبباً في إيمانهم، لكنه كان يطمئن قلوبهم ويزيدهم إيماناً، فضلاً عن رفع الشدائد وحل الأزمات وتيسير الصعاب عليهم.

ومن الأحداث النادرة التي استجاب الله تعالى فيها لتحدي المشركين ما رواه البخاري في صحيحه من «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فقال عليه الصلاة والسلام: اشهدوا»[3].

وقد فصل حديث صحيح حادثة انشقاق القمر في المرحلة المكية من حديث الصحابي جبير بن مطعم - رضى الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين؛ فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل. فقالوا: سحرنا محمد وقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)[4].
ولم يكن قولهم سحرنا محمد تعبيراً عن قناعتهم، وإنما كان ذريعة للتخلص من وعدهم بالإيمان عند رؤية المعجزة، فالفرق بين معجزة النبي وعمل السحرة ظاهر، فهم لم يألفوا من رسول الله تعلم السحر وتعاطيه، ولذلك لم يجرِ على

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كما في فتح الباري ٤٥٨/١ ومسلم في صحيحه ١٤٨/١.
(٢) سورة البقرة، الآية ٣.
(٣) رواه البخاري في صحيحه ٦٣١/٦.
(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٨١/٤ وروى ابن حبان طرفه (موارد الظمآن ٥١٩).

لسان المشركين بيان اكتسابه ومن علَّمهُ أياه. ثم إنَّ النبي يريد هدايتهم الى الحق وليس جرَّ نفع لنفسه كما هو شأن الساحر.

وإذا كان انشقاق القمر استجابةً لطلب المشركين وكشفاً لعنادهم وكذبهم فإنَّ حادثة الاسراء والمعراج وما رافقها من وصف دقيق لبيت المقدس قدَّمه الرسول عليه الصلاة والسلام أمام المشركين ولم يكن قد رآه، وما رأى من آيات ربه الكبرى في المعراج كل ذلك كان معجزة دون أن يطالبه بها أحد، بل كانت فتنة وامتحاناً ميَّزت بين المؤمنين والكافرين.

وقد وقعت معجزات حسيَّة أخرى للرسول ﷺ أمام بعض المشركين في أوقات متباينة من المرحلة المدنية، لكنها لم تؤد الى ايمان أحد منهم بصورة مباشرة استجابة لقهر المعجزة، بل تأخر إيمانهم بعدها حين شاء الله لهم الهداية. فقد حدث في أحد أسفار الرسول ﷺ مع الصحابة أن نفد الماء، فأرسل اثنين من الصحابة يرتادان المياه، فلم يجدا ماء بل وجدا امرأة تحمل مزادتين من ماء على بعير لها، فقدما بها الى رسول الله ﷺ، ففرغ من مائها في إناء ثم سقى الناس منه، ثم أعاد اليها المزادتين كاملتين مع هدايا من الطعام، وقال لها: تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي أسقانا. فلما رجعت المرأة الى أهلها قالت عنه فعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس، أو إنه لرسول الله حقاً ولم تُسلم وقومُها الا بعد حين[1]. فرغم ما لاحظته المرأة من المعجزة الحسية الظاهرة، فإنها لم تسلم نتيجة ذلك لأن العقل الكافر قد يخلط ما بين معجزة النبي والسحر عند شيوع الجهل وضعف الوعي وانعدام التمييز بين الحق والباطل.

ومثل هذا تكرر مع رجل من بني عامر - فيما يرويه الامام أحمد بسند صحيح قال: (أتى النبي ﷺ رجل من بني عامر فقال: يا رسول الله أرني الخاتم الذي بين كتفيك فإني من أطبّ الناس. فقال رسول الله ﷺ ألا أريك آية؟ قال: بلى. قال: فنظَرَ الى نخلة فقال: ادع ذلك العَذْقَ. قال: فدعاه فجاء ينقز حتى قام بين يديه. فقال له رسول الله ﷺ: ارجع فرجع مكانه. فقال العامري: يا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٤٤٧.

آل بني عامر ما رأيت كاليوم رجلاً أسحر)[1].

ولكن أمر المرأة صاحبة المزادة والرجل العامري يختلف عن موقف قريش، لأن المرأة والعامري لم يكونا يعرفان الرسول ﷺ، كما كانت قريش تعرف من صدقه وحسن سيرته وجوانب دعوته، وأنه رفض عروضها الدنيوية، وهي مطلب الساحر ومراده من السحر.

والحق أن اطلاع المشركين على المعجزات الحسية للرسول ﷺ كان قليلاً الى جانب المعجزات الحسية الكثيرة التي شهدها المؤمنون فازدادوا ايماناً واستبشاراً. قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: (كنا نعد الآيات بركةً، وأنتم تعدونها تخويفاً؛ كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقالوا: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: حيَّ على الطهور المبارك، والبركةُ من الله. فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[2].

وقد استفاضت الأخبار الصحيحة في تكثير الماء والطعام بين يديه في السفر والحضر، فقد توضأ سبعون صحابياً في قدح فيه ماء يسير مدّ النبي فيه أصابعه الأربع، ومرة أخرى توضأ زهاء ثلثمائة من إناء وضع الرسول ﷺ يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه[3].

وقد تكرر منه ذلك في الحديبية مراراً، فقد نزل المسلمون على ثمد قليل الماء فنزحوه، واشتكوا الى رسول الله ﷺ العطش، «فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه»[4]. ومرة أخرى في الحديبية عطش الناس وبين يدي النبي ركوة فتوضأ منها، واشتكى الناس اليه أن ليس عندهم ماء للشرب والوضوء غير ما في الرّكوة، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشرب ألف وخمسمائة من

---

(١) المسند ١/٢٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٥٨٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٥٨٠ - ٥٨١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٣٢٩.

الصحابة وتوضأوا. وهذا الخبر يرويه جابر بن عبدالله في صحيح البخاري، وقد شهده العيان من الصحابة وهم جمع غفير، وما أنكره أحد[1].

ومن ذلك ما حدث في غزوة تبوك حيث أخبر معاذ بن جبل بأن عين ماء تبوك كانت تبضُّ بشيء من ماء، وأن المقاتلين وقفوا عليها، ومعروف أن جيش تبوك هو أكبر جيش قاده رسول الله ﷺ، فماذا يجدي معهم ماء لا يكفي للرجل الواحد الا بعد جمعه في إناء! فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن غسل يديه ووجهه بماء جُمِع له من العين في إناء، ثم أعاده في العين فجرت بماء منهمر، فقال لمعاذ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً»[2].

وكذلك فقد استفاضت الأخبار الصحيحة في تكثير الطعام بين يديه عليه الصلاة والسلام، منها حديث جابر بن عبدالله رضي الله في الخندق، حيث رأى النبي ﷺ يعصب بطنه بحجر من الجوع، فقد لبث المسلمون ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً، فطلب جابر من امرأته أن تصنع طعاماً فذبحت معزةً وطحنت شعيراً، فصنعت من اللحم والشعير بُرمة، وذهب جابر فدعا رسول الله الى طعامه قائلاً: طعيم لي فقُم أنت يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان، فصاح النبي بأهل الخندق ودعاهم الى طعام جابر وهم ألفٌ، فأُسقط في يد جابر واشفق من قلة الطعام، فبارك النبي في الطعام قال جابر: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُّ كما هي، وأن عجينتنا ليُخبز كما هو[3].

وقد تكرر تكثير الطعام في وليمة زواجه ﷺ من زينب رضى الله عنها، فقد أهدت له أم سليم حَيْسةً في بُرمة صنعتها من تمر وسَمن وأَقِط، فدعا النبي ﷺ رجالاً غصَّ بهم البيت ودعا بما شاء الله له من الدعاء ثم أكلوا منها جميعاً[4].

وفي غزوة تبوك نفدت أزواد المسلمين حتى همُّوا بنحر بعض ابلهم التي

---

(١) صحيح البخاري ٦/٥٨١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٣/١٧٨٤.

(٣) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ٧/٣٩٥ وصحيح مسلم ٣/١٦١٠).

(٤) رواه البخاري في صحيحه ٩/٢٢٦.

تحملهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يـا رسول الله لـو جمعتَ ما بقي من أزواد القوم فدعوتَ الله عليها. ففعـل، فجاء ذو الـبُرِّ ببُرِّه وذو التمـر بتمره فدعا عليهـا حتى ملأ القـومُ أزودتَهم. فقال ﷺ: «**أشهـد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غيرَ شاكٍ فيهما الا دخل الجنة**»[1].

وقال أبو هـريرة رضي الله عنـه: (أتيت النبي ﷺ بتمرات، فقلت: ادع الله لي فيهن بالبركة. قال: فصفَّهُنَّ بين يديـه ثم دعا. فقـال لي: اجعلهن في مزود وأدخل يدك ولا تنثره، قال: فحملت منه كذا وكـذا وسقاً في سبيـل الله ونأكـل ونطعم، وكان لا يفارق حقوي فلما قتل عثمان رضي الله عنه انقطع عن حقـوى فسقط[2].

ومن هذه المعجزات الحسيـة الطبيَّـة أن عبدالله بن عتيك عندمـا ذهب لقتل اليهودي ابي رافع لِما كان يفعل من أذى الرسـول والإعانـة عليه، سقط عبـدالله من درجة في بيت أبي رافع، فانكسرت ساقه، فلما رجع فـأخبر رسـول الله بقتل أبي رافـع وأن رجله انكسرت قـال لـه رسـول الله ﷺ: ابسط رجلك. قـال: فبسطتُ رجلي فمسحها فكأنَّها لم أشتكها قط[3].

وأصيبت ساق سلمة بن الأكوع في غزوة خيـبر فأتى النبي ﷺ، قـال سلمة: فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت حتى الساعة[4].

وذهبت خالة السائب بن يزيـد به وهـو صغير الى النبي ﷺ فقـالت: إن ابن أختي شاكٍ فادع الله له، فدعا له. فـمات السائب وهـو ابن أربع وتسعـين وكان جَلداً معتدلاً، فكان يقول: لقد علمت ما متعت به سمعي وبصري الا بـدعاء النبي ﷺ[5].

---

(١) صحيح مسلم ١/٥٥.

(٢) رواه الامام أحمد في مسنده ٢/٣٥٢، والترمذي في جامعه وقال: حسن غـريب من هذا الـوجه وقد روى من غير هذا الوجه عن ابي هريرة (سنن الترمذي ٥/٦٨٥ حديث رقم ٣٨٣٩).

(٣) رواه البخاري في الصحيح ٧/٣٤.

(٤) المصدر السابق ٧/٤٧٥.

(٥) رواه البخاري في صحيحه ٤/١٦٣.

ومسح رسول الله على وجه قَتادة بن مِلْحان، فصار كأن على وجهه الدهان، أو كالمرآة تنعكس عليه الأشياء[1].

وأما إخباره عليه الصلاة والسلام بالأمور المغيَّبة، فهو لا يدل بالطبع على معرفة الغيب إذ ليس ذلك الا لله وحده، ولكنه يخبر بما يُعلمه الله بواسطة الوحي، فعن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج الى المصلى فصفَّ بهم وكبَّر أربعاً[2].

ومن ذلك إخباره ﷺ عن استشهاد القادة الثلاثة في غزوة مؤتة، قبل وصول الخبر الى المدينة، فقال ﷺ: **«أخذ الراية زيدٌ فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبدالله بن رواحة فأصيب، وأن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرةٍ ففتح له»**[3].

ومن ذلك ما رواه أبو حُميد الساعدي في سياق قصة غزوة تبوك: «وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: ستهبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله. فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى القته بجبلي طيء»[4].

وعندما قدَّمت له امرأة طعاماً مع جمع من أصحابه فلاك لقمة في فمه ثم قال: أجد لحم شاة أُخذت بغير اذن أهلها؟ فقالت المرأة: يا رسول الله إني أرسلت الى البقيع يُشترى لي شاة. فلم أجد، فأرسلت الى جار لي قد اشترى شاة أن أرسل اليَّ بها بثمنها، فلم يوجد، فأرسلت الى امرأته فأرسلت اليَّ بها فقال رسول الله ﷺ: **«أطعميه الأسارى»**[5].

وأما عصمة الله تعالى له فقد روى الصحابي جابر بن عبدالله (أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة

---

(١) رواه الامام أحمد بإسناد صحيح (المسند ٥/٢٨ و٨١).
(٢) رواه البخاري في صحيحه ٣/١١٦.
(٣) رواه البخاري في صحيحه ٣/١١٦ من حديث أنس بن مالك.
(٤) رواه مسلم في صحيحه ٤/١٧٨٥.
(٥) اخرجه أبو داؤد بإسناد حسن (سنن ٣/٦٢٧ حديث رقم ٣٣٣٢، ومسند احمد ٥/٢٩٤.

في وادٍ كثير العضاة، فنـزل رسول الله ﷺ، وتفـرق الناس يستـظلون بالشجـر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجـرة وعلق سيفه، ونمنـا نومـة فإذا رسـول الله ﷺ يدعونـا وإذ عنده اعرابي فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فـاستيقظت وهـو في يده صلتـاً، فقال: من يمنعـك مني؟ فقلت: الله ـ ثلاثـاً ـ، ولم يعـاقبـه وجلس»[1].

ومما يدل على عصمة الله له ما رواه أبو هريـرة ـ رضي الله عنه ـ قـال: «قال أبـو جهل: هـل يعفِّر محمـد وجهه بـين أظهركم؟ قـال: فقيـل: نعم. فقـال: والـلّات والعُزّى لئن رأيتُـه يفعل ذلـك لأطأنَّ عـلى رقبته أو لأعفـرنَّ وجهـه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبتـه. قال: فـما فجِئَتْهُم منه الاّ وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيـديه. قـال: فقيل لـه: مالـك؟ قال:بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسـول الله ﷺ: لو دنـا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[2].

وأما إحساس النبات والجمـاد بـه ومخاطبتـه لهما فمن ذلـك حديث جـابر بن عبدالله قال: «إنَّ امرأة من الأنصار قـالت لرسـول الله ﷺ: يا رسـول الله! ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه، فإن لي غـلاماً نجـاراً؟ قال: إن شئتِ. فعملت لـه المنـبر، فلما كان يـوم الجمعة قعـد النبي ﷺ على المنـبر الذي صُنِـع، فصـاحت النخلةُ التي كـان يخـطب عنـدهـا حتى كـادت أن تنشق، فنـزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها اليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكَّت حتى استقرَّت»[3].

ومن ذلك قوله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كـان يسلم عليَّ قبـل أن أبعث إني لأعرفه الآن»[4].

ومن ذلك حديث عـائشة ـ رضى الله عنهـا ـ: «كان لآل رسـول الله وحشٌ، فكان اذا خرج رسول الله ﷺ اشتدَّ ولعب في البيت، فإذا دخل رسـول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ٣/٢٢٩.
(٢) رواه مسلم في صحيحه ٢/٢١٥٤.
(٣) رواه البخاري في صحيحه ٤/٣١٩.
(٤) رواه مسلم في صحيحه ٤/١٧٨٢.

سكن ولم يتحرك كراهية أن يؤذيه»[1].

وقد نهى رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار عن أذى جَمَل له قائلاً: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها؟ فإنه شكاك اليَّ وزعم انك تُجيعه وتُدئبُهُ»[2].

وقد رمى رسول الله ﷺ المشركين بالتراب في وجوههم في عدة مواقف من السيرة، فكان للتراب أثر في هزيمتهم. كما أخبر شهود عيان من الصحابة رضوان الله عليهم، فأخبر العباس بن عبد المطلب وسلمة بن الأكوع أنه ﷺ لما غشيه المشركون في غزوة حنين، نزل عن بغلته فأخذ تراباً أو حصيات من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه. فما خلق الله منهم إنساناً إلّا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين»[3].

وقد أخبر عبدالله بن عباس أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمداً قمنا اليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله.

قال: فأقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها فقالت له: ما علمت... قال: «يا بنية أدنى وضوءاً فتوضأ، ثم دخل المسجد فلما رأوه قالوا هو هذا. فخفضوا أبصارهم وعقروا في مجالسهم فلم يرفعوا اليه أبصارهم ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: شاهت الوجوه. قال: فما أصابت منهم حصاة إلّا قتل يوم بدر كافراً»[4].

إذاً شهد المسلمون معجزات كثيرة لرسول الله ﷺ، كانت تزيدهم إيماناً واستبشاراً، وكانت متنوعة في جنسها، متكررة في أوقات عديدة، ما بين تكثير الماء والطعام حتى ليكفي ماء وطعام الاثنين والثلاثة عدداً كبيراً يبلغ الألف أو يزيد، وما بين تطبيب المرضى بالدعاء والمسح على موضع الأذى، وما بين

(١) رواه أحمد بإسناد حسن (المسند ٦/٢٠٩).
(٢) رواه الامام أحمد بإسناد صحيح (المسند ١/٢٥٠ و ٢٦٩).
(٣) رواه مسلم واللفظ لسلمة بن الأكوع (الصحيح ٣/١٣٩٨ و ١٤٠٢).
(٤) رواه الامام أحمد بإسناد حسن (المسند ١/٣٦٨).

الإخبار عن أمور مغيبة فتقع كما أخبر، وما بين انصياع الحيوان والنبات والجماد له وهي لا تعقل، وما بين عصمة الله له من القتل، واستجابة الله لدعائه. وقد مال بعض الباحثين الى إنكار المعجزات الحسية بحجة أنها لا تتمشى مع نمط التفكير العقلي الحديث. ولا تتقبلها الفلسفات الحديثة، ولا مناهج البحث المعاصرة. وقد اعترف هؤلاء بالمعجزة القرآنية وحدها، لأنها محسوسة لأهل هذا العصر يمكنهم دراستها والحكم على أوجه الإعجاز فيها، وأما المعجزات الحسية التي وقعت للنبي ﷺ فلا يمكن إخضاعها للدراسة، ولا تتقبلها الأعراف العلمية السائدة. ونظراً لأن المصادر الاسلامية الصحيحة نقلت أخبار المعجزات الحسية، فكان إنكارها فيه اتهام لشهود العيان من الصحابة رضوان الله عليهم بالكذب، أو بضعف العقل وخطل التصور، بحيث نقلوا أخباراً تصوروها صحيحة وليست كذلك. ولا يخفى ما في الاتهامين من إجحاف ومجازفة وتناقض فقد قبلنا من نفس شهود العيان ما يتعلق بالعقيدة والشريعة، وتعرفنا على أخبار النبي ﷺ فلماذا قبلنا منهم رواياتهم في هذا كله، وانكرناها عندما تعرضت لأخبار المعجزات الحسية، وإن كانت العلة أن العقل المادي يرفض المعجزات، فإنه يرفض الوحي كله ويرفض الايمان بالله وبرسالاته، فلا مناص للمؤمن بالغيب من قبول الروايات الصحيحة المتعلقة بالمعجزات الحسية.



منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في العبادة

لمحة عن الشعائر التعبدية في العهد المكي:

لم تصح رواية في تشريع الوضوء بمكة، ولكن ثمة روايات ضعيفة يسوقها ابن اسحق مرة بمناسبة فرض الصلاة[1]، وأخرى في قصة اسلام عمر بن الخطاب[2]، ويستشف من الآية المكية ﴿**وثيابك فطهر**﴾[3] أن الوضوء شرع بمكة، وقد رجح ذلك السهيلي[4]. وبه قال جمهور العلماء[5]. رغم أن الآية الكريمة المتعلقة بالوضوء نزلت بالمدينة باتفاق وهي: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق، وامسحوابرؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾[6] وقد سمتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٤٤ حيث يسوق ابن اسحق الخبر دون اسناد، وروى الحديث مسنداً الى زيد بن حارثة لكن في إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف هنا.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٤٥.

(٣) سورة المدثر، الآية ٤ وراجع تفسيرها في ابن كثير ٤/٤٤١.

(٤) الروض الأنف ٣/١٣.

(٥) مسلم (بشرح النووي) ٣/١٠٢.

(٦) سورة المائدة، الآية ٦.

آيـة التيمم، ربما لـلإشارة الى أن الـوضوء كـان مفروضـاً قبل أن يكـون قـرآنـاً يتلى[1].

وكـانت قبلة الصـلاة بمكـة نحـو بيت المقـدس، فكـان النبي ﷺ يقف بـين الركنين اليماني والأسود، فيجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس[2].

وقد ورد ذكر الصلاة في عدة سور مكية مثل الآية **﴿أرأيت الـذي ينهى عبداً اذا صلى﴾**[3] والآية **﴿وأمـر أهلك بالصـلاة واصطبر عليهـا﴾**[4] و **﴿قد أفلح من تـزكّى وذكر اسم ربـه فصـلّى﴾**[5] و **﴿مـا سلككم في سقـر، قـالـوا لم نـك من المصلين﴾**[6].

وتشير بعض الأخبار الضعيفة الى أن أوائل المسلمين كانـوا يصلون، لكنها لا توضح كيفية صلاتهم، ولا عدد ركعاتهـا إن كان فيهـا ركوع. ولكنهـا تذكـر أن النبي ﷺ كان يخرج مع علي ـ رضي الله عنه ـ الى شعاب مكة يصليان سـراً[7]. وأن الصحابة الخمسة الذين دعاهم أبو بكـر الصديق ـ رضي الله عنـه ـ أسلموا وصلوا[8]، على أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ذكرت في حديث صحيح أن الصلاة كانت أول فرضها ركعتين ركعتـين في الحضر والسفر[9]، وبـيَّنَ المُزني ـ صـاحب الإمـام الشافعي ـ أن الصـلاة قبل حـادث الإسراء والمعراج كـانت صـلاة قبـل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها[10].

وفي حادثة الإسراء والمعـراج قبل الهجـرة بسنة ـ في روايـة مرسلة للزهـري ـ

---

(1) الروض الأنف ٣/١٣.
(2) مسلم (بشرح النووي) ٥/٩ و ١٠ وابن هشام ١/٣٤٧.
(3) سورة العلق، الآيات ٩ ـ ١٠.
(4) طه ١٣٢.
(5) الأعلى ١٤ ـ ١٥.
(6) سورة المدثر، الآية ٤٢ ـ ٤٣.
(7) أكرم العمري: الرسول في مكة ص ٦٥.
(8) ابن هشام: السيرة ١/٢٥١ ـ ٢٥٢.
(9) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١/٤٦٤).
(10) السهيلي: الروض الأنف ١/١١ ـ ١٢.

فرضت الصلاة في خمسة أوقات[1]، وحدد عدد ركعاتها، ثنتان للصبح وثلاث للمغرب وأربع للظهر والعصر والعشاء، في السفر والحضر، ثم قصرت الصلاة الرباعية في السفر بعد الهجرة الى المدينة فصارت ركعتين فقط للمسافر[2]

وكان المسلمون في المرحلة المكية يؤدون الصلاة سراً [3]، خوفاً من بطش المشركين، ونادراً ما جهروا بصلاتهم كما فعلوا مرة عند اسلام عمر بن الخطاب حيث صلى معه بعضهم في الكعبة[4]. وكان الكلام في الصلاة مثل رد السلام وتشميت العاطس مسموحاً به ثم نهي عن الكلام في الصلاة بعد الهجرة الأولى الى الحبشة من المرحلة المكية[5].

وقد شرع قيام الليل بنزول سورة المزمل في المرحلة المكية **﴿يا أيها المزَّمِّلُ قم الليل إلاّ قليلاً، نصفَهُ أو انقُص منه قليلاً، أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً، إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئاً وأقْومُ قيلاً إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً واذكر اسم ربك وتبتَّل اليه تبتيلاً﴾**[6].

وفي المرحلة المكية شرعت الزكاة بمعناها العام؛ وهو الحثُّ على الصدقات واعطاء المحروم وإطعام المسكين دون تحديد للأنصبة والمقادير، فوصفت السور المكية المؤمنين بأنهم **﴿للزكاة فاعلون﴾** و **﴿في أموالهم حق للسائل والمحروم﴾** وأنه **﴿حق معلوم﴾**[7]. أما تحديد النصاب ومقادير الزكاة فقد شرع في سنة اثنتين من الهجرة[8].

وأما صلاة الجمعة، فقد كانت قبل هجرة النبي ﷺ الى المدينة المنورة، وقد

(١) مسلم (بشرح النووي) ٥/١٠٩.
(٢) البخاري: صحيح (فتح الباري ٧/٢٦٧ ـ ٢٦٨).
(٣) ابن هشام: سيرة ١/٢٦٣.
(٤) ابن هشام: سيرة ١/٣٤٢.
(٥) البخاري: صحيح (فتح الباري ٣/٧٢ ـ ٧٣ وابن القيم: زاد المعاد ٢/١١٨ ـ ١١٩ وابن كثير: البداية والنهاية ٣/٩٢.
(٦) سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٨.
(٧) انظر سورة «المؤمنون» آية ١ ـ ٤ وسورة الروم آية ٣٩، وسورة الذاريات آية ١٥ ـ ١٩ وسورة المعارج آية ١٩ ـ ٢٥.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣٤٧.

تمكن المسلمون في المدينة من أدائها، فقد روى أبو داود بإسناد حسن قول كعب بن مالك الأنصاري: «أول من جمع بنا أسعد بن زرارة في هزم البيت، في نقيع يقال له: نقيع الخضمات «وقال كعب إنهم كانوا أربعين رجلًا»[1].

لقد تأخرت بعض الفرائض التي اعتبرت من أركان الاسلام الى المرحلة المدنية مثل الصوم والحج. أما الصوم فقد كانت فرضيته يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية من الهجرة. وأما الحج فقد فرض سنة ست للهجرة، ورجّح ابن القيم أن افتراضه كان سنة تسع أو عشر.

ويتمثل منهج الرسول ﷺ في العبادة بإقامة الفرائض والإكثار من النوافل، والاهتمام بالعبادات القلبية من ذكر وخشوع وإنابة رغم غفران الله له ورضاه عنه.

قال تعالى: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾**[2] وقد نزلت سورة الفتح في طريق عودة المسلمين من الحديبية الى المدينة، بعد عقد صلح الحديبية، وكان فرح الرسول ﷺ بها عظيماً، لما فيها من إقرار لموافقته على الصلح، وتبشير للمسلمين بأن ما تم فتح لهم، لما وراءه من الخير الكثير الذي تحقق بانتشار الاسلام بعد الصلح، وكذلك فإن الآية أخبرت رسول الله ﷺ بالبشارة العظيمة **﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾**.

فما كان حال النبي الموعود بغفران الذنوب؟ هل ترك العمل وجنح الى الراحة؟ وهل قلّل ذلك الغفران من جده في العبادة واجتهاده في الجهاد، وهل قنع بما قدم وطوى صفحات الكفاح في السلم والحرب؟

إن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك، بل مضى دؤوباً في ملء أشواق روحه، وتطلعات قلبه الذي انغمر بمحبة الله تعالى، ولم يعد يفيض إلّا الذكر والشكر، قلبه الذي ينبض بذكر الله ويخفق بشكره لا يسعه إلّا المضي في السبيل الذي

---

(١) سنن أبي داؤد ١٠٦٩ ومستدرك الحاكم ٢٨١/١ وسنن البيهقي ١٧٦/٣ ـ ١٧٧ وقد صرح ابن اسحق بالتحديث عند الحاكم والبيهقي، وقال البيهقي: «وهذا حديث حسن الاسناد صحيح».

(٢) الفتح ١.

اعتاده، لقد بلغ الستين من عمره أو كاد حين نزول سورة الفتح، وكان العقدان الأخيران حافلين بمهام جسيمة تمثلت في حمل أعباء الرسالة وتبليغها، ومقارعة خصومها بالحجة والبيان في مكة، ثم بالحجة والسنان في المدينة، وهو في صراعه الطويل من أجل الحق لا يدع التزود من طاقات الروح الهائلة بوصلها بالخالق القدير، فكان كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان يصلي ليلاً طويلاً قائماً، وليلاً طويلاً قاعداً، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم، وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس»(١).

ولم يكن يكلف نفسه فوق ما تطيق، بل يعمل ما يتيسر له حسب مراحل عمره وقوة جسده، فلما ثقل جسمه الشريف ولم يعد يطيق القيام الطويل في صلاة التطوع أخذ يصلي قاعداً، قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ لم يمت حتى كان أكثر صلاته وهو جالس»(٢).

وكان قيامه لصلاة الليل طويلاً، وكان أصحابه رضوان الله عليهم لا يطيقون ما يطيق. قال عاصم بن ضمرة، سألت علياً كرم الله وجهه عن صلاة رسول الله ﷺ فقال: «إنكم لا تطيقون ذلك»(٣).

وعن عبدالله بن مسعود قال: «صليت ليلة مع رسول الله ﷺ فلم يزل قائماً حتى هممتُ بأمر سوء. قيل له: وما هممت به؟ قال: هممت أن أقعد وأدع النبي ﷺ»(٤)! فعبدالله بن مسعود لم يكن يطيق ـ على ما عرف عنه من كثرة العبادة ـ ما يطيق رسول الله ﷺ حتى خطر في ذهنه أن يجلس في الصلاة، ويدع رسول الله قائماً لفرط تعبه، لكنه لم يفعل وغالب الخطرة، لكنه لم ينسَ الموقف وأخبر الناس بطول صلاة رسول الله ﷺ ترغيباً لهم في العبادة وحثاً على الاقتداء بالنبي المغفور له، والذي يعبد الله تعالى تحت شعار «أفلا أكون عبداً شكوراً». فكيف بمن لا يدري الى أين يصير الى الجنة أم النار؟.

لقد وصف لنا عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ كيف يمضي رسول الله ﷺ

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية ١٥٢ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) مسلم: الصحيح رقم ١١٦.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن (مختصر الشمائل المحمدية ١٥٤).

(٤) مسلم: الصحيح ١/٥٣٧ رقم ٧٧٣.

ليله، فقد بات ابن عباس عند خالته ميمونة ـ وهي أخت أمه لأبيه ـ فشاهد ما حدث وحدَّثَ به قال: «فاضطجعت في عرْض الوِسادة، واضطجع رسول الله ﷺ في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فجعل يمسح النوم عن وجهه، وقرأ العشرَ الآياتِ الخواتيمَ من سورة آل عمران. وَقَامَ الى شِنٍّ ـ أي قِربة ـ مُعلَّق فتوضأ منها، فأحسن الوضوء، ثم قام يصلي.

قال عبدالله بن عباس: فقمت الى جنبه، فذكر صلاته اثنتي عشرة ركعة، ثم أوتر، ثم نام حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح»[1].

وكانت قراءته للقرآن يمدُّها، ويقطِّعُها فيقول «الحمد لله رب العالمين» ثم يقف. ثم يقول «الرحمن الرحيم» ثم يقف. وكان ربما أسرَّ بالقراءة، وربما جهر، وكان يرجِّع صوته بالقراءة ـ أي يرددها ـ، وكل ذلك ثابت عنه بالأحاديث الصحيحة[2].

وأحياناً كانت قراءته تختلط ببكائه، ويسمع نشيجه كما في حديث عبدالله بن الشخِّير قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء. وكيف لا يتأثر رسول الله ﷺ بالقرآن فيبكي وهو أعرف الناس بالله، وأوعاهم بالحق الذي أنزل عليه، وقد عرف وأبصر من أمور الغيب في الإسراء والمعراج ومباشرة الوحي ما ملأه علماً وخشيةً وفكراً وتأملاً[3].

وكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يسمع القرآن بصوت الآخرين من الصحابة مثل أُبيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري من أصحاب الحفظ والتجويد والأصوات الحسنة بالقرآن.

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». فقلت: يا رسول الله أقرأ عليه وعليك أُنزل؟. قال: «إني أُحب أن

---

(١) صحيح البخاري ٥٣/١ وصحيح مسلم ٥٢٥/١ حديث رقم ٧٦٣.
(٢) مختصر الشمائل النبوية ١٦٦ ـ ١٦٨.
(٣) اخرجه أبو داود رقم ٩٠٤.

أسمعه من غيري». فقرأتُ سورة النساء حتى بلغت ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال: فرأيتُ عيني رسول الله تَهْمِلان» ـ متفق عليه ـ[1].

وروى الإمام البخاري بسنده الى أنس بن مالك قال: إن نبي الله ﷺ قال لأُبي بن كعب: «إنَّ الله أمرني أن أقرئك القرآن. قال: الله سمَّاني لك؟ قال: نعم. قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم. فَذَرَفت عيناه»[2].

وكان عليه الصلاة والسلام يعجبه صوت أبي موسى الأشعري وقد شبهه لحسنه بمزامير آل داوُد.

وهكذا سمع القرآن بأصوات الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان يصلي التطوع في بيته، ويؤم الصحابة في المسجد في الصلوات الخمس المكتوبة، وقد سئل عن الصلاة في البيت والمسجد، فقال: «قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد، فلأن أصلي في بيتي أحب من أن أصلي في المسجد إلاّ أن تكون صلاة مكتوبة»[3] وذلك لأن صلاة الجماعة في المسجد خمس أوقات تحقق أغراضاً نافعة؛ منها اجتماع المسلمين في الأماكن المتقاربة في مكان واحد مما يؤدي الى تعارفهم، وتعاونهم على البر والتقوى، وتفقدهم لأحوال بعضهم، ومنها إقامة شعائر الاسلام بمظهر يدل على القوة والغلبة للإسلام وأهله.

ثم إن صلاة المكتوبات في المسجد أعظم أجراً، لأن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذِّ بسبع وعشرين درجة، كما أخبر الرسول ﷺ. وأما صلاة التطوع فإن اداءها في البيت بعيداً عن الأعين يَبعُدُ بصاحبها عن الرياء والخيلاء ويقربه من الاخلاص، ويجعله قدوة لأهل بيته ممن ليس يحضر صلاة الجماعة من النساء، وأصحاب الأعذار.

وهكذا كانت صلوات رسول الله ﷺ في بيته في جوف الليل، وفي صلاة الضحى وفيما بين الصلوات المكتوبة، فقد جعلت قرة عينه في الصلاة، فهي

---

(١) الآية من سورة النساء ٤١، والحديث أخرجه البخاري: الصحيح ١١٤/٦ ومسلم: الصحيح حديث رقم ٨٠٠ والترمذي: سنن ٢٣٨/٥ رقم ٣٠٢٥ وسنن أبي داؤد ٧٤/٥ حديث رقم ٣٦٦٨.

(٢) فتح الباري ٧٢٦/٨ حديث رقم ٤٩٦١.

(٣) سنن أبي داؤد ٩١٩.

معراج المؤمن، وكانت آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أصحابه وهو يودع الدنيا وينتقل الى الرفيق الأعلى: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[1].

وكان الرسول ﷺ يهدف الى توثيق صلة القلب بالله بصورة دائمة، كما عبَّرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقولها: «كان عمله دِيمَةً» وقالت مرة وشاركتها القول أم سلمة، وقد سئلتا: أيّ العمل كان أحب الى رسول الله ﷺ؟ قالتا: «ما ديم عليه وان قَلَّ»[2].

وكان ينوِّع في عبادته ما بين صوم وصلاة وذكر وتعليم وجهاد، قال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلةً، فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلي، فقمتُ معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف فسأل، ولا يمرُّ بآية عذابٍ إلّا وقف فتعوَّذ ثم ركع، فمكث راكعاً بقدر قيامه، ويقول في ركوعه: سبحانَ ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد بقَدْر ركوعه، ويقول في سجوده: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة». ثم قرأ «آل عمران» ثم سورةً ثم سورةً، يفعل مثل ذلك»[3].

وكان عليه الصلاة والسلام كثير الصوم. قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «كان يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً الا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته»[4].

وقد ذكرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أنه كان يتحرَّى صوم الاثنين والخميس»[5] وقد بيَّن رسول الله ﷺ سبب تحرِّيه الصوم يومي الاثنين والخميس بقوله: «تُعرض الأعمالُ يوم الاثنين والخميس فأُحب أن يعرض عملي وأنا صائم»[6].

ومنهجه في الاتصال الدائم بالله لا يختل سواء كان في صلاة أم صوم أم كان

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (الألباني: صحيح سنن ابن ماجة ٢/١٠٩ رقم ٢١٨١).
(٢) الألباني: مختصر الشمائل ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٣) النسائي في سننه ٢/٢٢٣ وأحمد: المسند ٦/٢٤.
(٤) صحيح البخاري ٢/٤٦.
(٥) الترمذي: سنن ٧٤٥ وابن ماجة سنن ٧٣٩ وإسناده صحيح (الارواء ٤/١٠٥ و ١٠٦).
(٦) صحيح سنن الترمذي ١/٢٢٧.

مضطجعاً، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: يا عائشة ان عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي»[1].

فقد كان يذكر الله على كل أحيانه، فإذا نام ذكر الله قائلاً: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[2].

وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور**»[3] وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ اذا أوى الى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿**قل هو الله أحد**﴾ و ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾. ثم يمسح بها ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[4].

وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى الى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممَّن لا كافي له ولا مُؤوي»[5].

فدعواته ﷺ عند النوم فيها معاني التسليم لله تعالى، وأنه لا حول ولا قوة للانسان الا بالله، وأن الله وحده المحيي والمميت، وأنه يستحق الحمد على النوم والاستيقاظ والطعام والشراب والكفاية عن سؤال الناس والإيواء بما يحمله من معاني الطمأنينة والستر، وما أعظم دلالات قوله عليه الصلاة والسلام: «**فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**». نعم كم من الناس على وجه الأرض لا يجد كفايته ويسأل غيره العون، إن الجياع أكثر من الطاعمين، والعراة أكثر من الكاسين، ومن عندهم المال ولا يحسون بالكفاية بل يدفعهم الطمع والحرص على جمع المال من كل سبيل الى القلق وعدم الإحساس بالكفاية.

---

(١) صحيح البخاري ٢/٤٧ ـ ٤٨ وصحيح مسلم ١/٥٠٩ حديث رقم ٨٣٨.
(٢) صحيح البخاري ٧/١٤٩.
(٣) صحيح البخاري ٧/١٤٧.
(٤) صحيح البخاري ٦/١٠٦.
(٥) صحيح مسلم ٤/٢٨٥ حديثه رقم ٢٧١٥.

ومن درس سيرة رسول الله ﷺ، وعرف قلة ما عنده من طعام وأثاث وأشياء أدرك معنى الزهد والقناعة والإحساس بالكفاية.

ثم إن رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن ينظروا الى من دونهم من الناس، ولا ينظروا الى من فوقهم، فمن نظر الى من دونه عرف عظيم نعمة الله تعالى عليه، وقنع بما أعطاه، وأحس الرضا بالقدروالحمد لله على الإيواء، فإن الإحساس بأن الله تعالى آوى العبد اليه، وهداه الى سبيله، ونسبه الى نفسه، وتولاه ولم يكله الى سواه يجعل العبد في غاية الثقة بحاضره وبمستقبله، فلا يقلق لمصاب، ولا ينخلع قلبه خوفاً من مواجهة الأحداث الثقيلة والتقلبات العنيفة، بل هو شامخ كالطود أمام أعاصير الحياة...

وكيف لا تطمئن نفس من آواه الله الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي لا تعزب عنه مثقال حبة في الأرض ولا في السماء، والذي ليس لقدرته حدود ولا لأمره رد؟.

وقد روى الامام مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من صلّى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلُبَنَّكم الله في ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمَّته بشيء يدركه، ثم يكبُّه على وجهه في نار جهنم**»[1].

فأي أمان للإنسان أعظم من أمان الله، وأن يكون في ذمة الله وعهده وحفظه، وكان رسول الله ﷺ اذا صلى الصبح يقعد في مصلاه يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس[2] ثم لا يزال بعدها يشكر نعم الله، فإذا طعم طعاماً أو شرب شراباً أو لبس جديداً دعا الله تعالى شاكراً حامداً، فإذا ارتفعت الشمس تطوع لله بأربع وهي صلاة الضُّحى، وكان أبو هريرة - رضي الله عنه - يقول: «أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضُّحى، وإن أوتِرَ قبل أن أرقُد»[3].

وفي الحديث القدسي أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله عز وجل يقول يا ابن**

---

(١) صحيح مسلم ١/٤٥٥.
(٢) صحيح مسلم ١/٤٦٣، ٤/١٨١٠ ومسند احمد ٥/٩١.
(٣) مسلم: الصحيح ١/٤٩٩ وروى البخاري في صحيحه الوصية بركعتي الضحى ٢/٥٢.

آدم اكفني أوَّل النهار بأربع رَكَعاتٍ أكْفِـكَ بهن آخر يـومك»(١) ولا يـزال رسول الله ﷺ يُحصِّن نفسه ليلَهُ ونهارَهُ بالأدعية والإذكار، ويعلم أصحابه ذلـك، فعن شـداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «سيِّدُ الاستغفـار أن تقـول اللهم أنت ربيّ لا اله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا عـلى عهدك ووعـدك ما استطعت، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتـك عليَّ وأبـوءُ بذنبي، فاغفر لي فإنّه لا يغفر الذنوب الا أنت»(٢).

وكـان رسول الله ﷺ يعلم أصحـابه صـلاة الحاجـة وصلاة التـوبـة وصـلاة الاستخارة، فكانوا يرتبـطون بالله تعـالى في صلوات كثيرة، فـلا يخلو انسان من ذنب كبير أو صغير. ففي الحديث «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التـوابون»(٣) ولا ينفـك المرء عن حـاجة تعـرض له صغـرت أو كبرت فعن عثـمان بن حُنَيف ـ رضي الله عنه ـ: أن أعمى أتى الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يكشف لي عن بصري، قال: أو أدعُك. قال: يا رسول الله إنَّه قد شقّ عليّ ذهاب بصري قال: فانطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين، ثم قل: اللهمّ إني أسألـك وأتوجَّهُ اليك بنبيِّي محمد ﷺ نبيّ الرحمة.

يا محمد: إني أتوجَّهُ الى ربيّ بـك أن يكشف لي عن بصري. اللهمّ شفّعه فيَّ وشفّعني في نفسي، فرجع وقد كشف الله عن بصره»(٤).

---

(١) رواه احمد وأبو يعلى ورجال احدهما رجال الصحيح ١/٤٩٩ وروى البخاري في صحيحه الوصية بركعتي الضحى ٢/٥٢ وأخرجه الترمذي (السنن ٢/٣٤٠ وقال: حسن غريب) وأخرجه أبو داود (السنن ٢/٦٣) وأحمد: المسند ٥/٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) رواه البخاري (صحيحه ٧/١٤٥).

(٣) صحيح سنن الترمذي ٢/٣٠٥.

(٤) رواه الترمذي (سنن ٥/٥٦٩) وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجة: سنن (صحيح سنن ابن ماجة ١/٢٣١ ـ ٢٣٢).

نبي الرحمة

قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1].

فالرسول عربي قرشي معروف النسب، لم يطعن أحد في صحة نسبه، وكرم محتده، فمخاطبة الله تعالى للعرب بأن الرسول من أنفسهم تذكير لهم بأنه لهم ناصح ومحب، وعليهم مشفق، وعلى هدايتهم حريص، وأنه بهم رفيق وعليهم مشفق، يشق عليه ضلالهم ويفرح لهدايتهم، ووردت أحاديث كثيرة تبين بعض مظاهر الرحمة المهداة، والمتمثلة بالمصطفى عليه الصلاة والسلام، فمن ذلك وفاته ﷺ قبل أمته ليكون لها سلفاً. ففي الحديث: «**إن الله عز وجل إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده قبض نبيها قبلها، فجعله لها فَرَطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذَّبها، ونبيها حيٌّ فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره**»[2].

ومن وقائع السيرة النبوية أن ثقيفاً آذت رسول الله ﷺ عندما ذهب الى الطائف يدعوهم الى الاسلام حتى رشقوه بالحجارة وأدموا قدميه، وخيَّره الله أن يعاقبهم فيطبق عليهم الجبال، فقال عليه الصلاة والسلام: «**بل أرجو أن يخرج**

(١) التوبة ١٢٨.

(٢) صحيح مسلم ٤/١٧٩١ ـ ١٧٩٢ حديث رقم ٢٢٨٨.

الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[1].

وكان عليه الصلاة والسلام أَمْنـاً لأمته في حيـاته، كـما أن الاستغفار أمن لهـا بعد وفاته قال تعالى: **﴿وما كـان الله ليعذبَهم وأنت فيهم ومـا كان الله معـذبَهم وهم يستغفرون﴾**[2] وهو في حياته ومماته رحمة وخير للمؤمنين. قال عليـه الصلاة والسلام: «**حياتي خير لكم: تحدِثـون ويُحْدَثُ لكم، ووفـاتي خير لكم تعـرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، ومـا رأيت من شر استغفرت الله لكم**»[3].

وهو رحمة عامة كما في القرآن **﴿وما أرسلناك الا رحمة للعالمين﴾**[4] كما أنـه نور يضيءُ طـريق الهدايـة للناس قـال تعالى: **﴿يـا أيها النبي إنـا أرسلناك شـاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾**[5].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «**لما كان اليوم الذي دخل فيـه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء من المدينة كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ أظلم كل شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا**»[6].

وقد منح الله تعالى الأنبياء دعوة مستجابة، فتعجلوها ودعوا بها، أما الرسول الكريم فقد ادخرها لأمته كما في الحديث: «**لكل نبي دعوة مستجابة فعجل كـل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[7].

وتتجـلَّى في رسالـة النبي الكريم كـل معاني الـرحمة، فقـد رفع الله عن أمتـه الإصر والأغـلال التي كانت عـلى الأمم السابقـة، فيسر لهـا الـدين ورفـع عنهـا الحرج **﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾**[8].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٣١٢/٦ ـ ٣١٣) وصحيح مسلم ١٤٢٠/٣.
(٢) الأنفال ٣٣.
(٣) رواه البزار كما في كشف الأستار ٣٩٧/١.
(٤) الأنبياء ١٠٧.
(٥) الأحزاب ٤٥.
(٦) مسند أحمد ٢٦٨/٣ والحاكم: المستدرك ٥٧/٣ وصححه ووافقه الذهبي.
(٧) متفق عليـه واللفظ لمسلم (صحيـح البخـاري ١٤٥/٧ وصحيـح مسلم ١٨٩/١ حـديث رقم ١٩٩).
(٨) الحج ٧٨.

وقد امتلأت نفس الرسول الكريم بالرحمة، وأوصى أتباعه بأن يكونوا رحماء كما وصفهم القرآن ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركّعاً سجّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾[1].

قال انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»[2] وقال زيد بن حارثة: «أرسلت ابنة النبي ﷺ أن ابناً لي قُبض فأتنا، فأرسل يقرىء السلام ويقول: إنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيءٍ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسِبْ، فأرسلت اليه تقسم عليه ليأتينّها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرُفع الى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[3].

وكان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه: «**. . . ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً**»[4].

وقد شملت رحمته ووصاته بالرحمة الحيوان فضلاً عن الانسان، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا مع النبي ﷺ، فمررنا بقرية نمل قد أحرقت، فغضب النبي ﷺ وقال: «**إنه لا ينبغي لبشر أن يعذِبَ بعذاب الله عز وجل**»[5].

عن سعيد بن جبير قال: «مرَّ ابن عمر بنفرٍ قد نصبوا دجاجة يترامونها، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا»[6].

وقال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال النبي

---

(١) الفتح ٢٩.
(٢) صحيح مسلم ٤/٢٣١٦.
(٣) صحيح البخاري ٢/٨٠ وصحيح مسلم ٢/٦٣٥ حديث رقم ٩٢٣.
(٤) صحيح مسلم ٣/١٣٥٧ حديث رقم ١٧٣١.
(٥) أحمد: المسند ١/٢٩٦ وأبو داود: السنن ٣/١٢٦.
(٦) صحيح مسلم ٣/١٥٤٩ ـ ١٥٥٠ حديث رقم ١٩٥٨.

ﷺ: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحَ، وليحدَّ أحدكم شفرتَه، فليُرح ذبيحتَه**»[2].

وكان الرسول الرحيم يضرب لأصحابه الأمثال، ويحكي لهم من أخبار الماضين ما يرسم في نفوسهم الرحمة، قال لهم مرة: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفَّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «**في كل كبدٍ رطبةٍ أجر**»[3].

وهذا غيض من فيض، وكله يشهد لهذا النبي الكريم بأنه «رحمة مهداة» وأنه غرس معاني الرحمة في أصحابه، وأوصاهم بها وملأ تعاليمه بذكرها، وشمل بها كل ذي روح من إنسان وحيوان، وسبق بذلك كل لوائح حقوق الانسان الحديثة، وكل جمعيات البر والرفق بالحيوان مما يحسبه الناس من خصائص الحضارة الغربية وعطائها.

فلا عجب أن كانت بعثته رحمة للعالمين، وأن يعبر عن جوهر رسالته بقوله عليه الصلاة والسلام: «**يا أيها الناس إنما أنا رحمةٌ مهداة**».

وسوف تظل تعاليمه تمسح جراحات المعذبين وتلمس حنايا المستضعفين وتلين قلوب المتجبرين وتملأ الحياة بالحب والدفء والرحمة.

---

(١) مسند أحمد ٤٢٦/٣.

(٢) مسلم: الصحيح ١٥٤٨/٣ حديث رقم ١٩٥٥.

(٣) متفق عليه (صحيح البخاري ٧٧/٣) وصحيح مسلم ١٧٦١/٤ حديث رقم ٢٢٤٤ واللفظ له.

(٤) الحاكم: المستدرك ٣٥/١ وصححه وأقره الذهبي.

محبة الرسول من الإيمان

قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ومساكن ترضونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

دلت هذه الآية على وجوب محبة الرسول ﷺ ووضعت ميزاناً لهذه المحبة تقاس به، فليس المطلوب أن يحب المؤمن رسول الله كحبه لأبيه وبنيه وأهله وماله، بل ينبغي أن ترجح كفة محبة الله ورسوله على سائر ما يحب، فلا يكون في قلبه محبة لشيء تزيد على محبته للرسول ﷺ، لأن الرسول سبب خروجه من ظلمات الجهالة والضلال وسعادته بالعلم والهداية، وإنقاذه من ضنك الدنيا وعذاب الآخرة، فنعمة الايمان الحاصلة بسببه أعظم من سائر النعم وأكبر من كل الفوائد، فحق على من أدرك عظمة هذه النعمة أن يحب من أوصلها اليه، وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذه المعاني فتعلقوا برسول الله أشدَّ التعلق، وأحبوه أعظم الحب، وفدوه بالنفس والأهل والمال. قال صفوان بن عسَّال المُرادي: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فبينا نحن عنده اذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد. فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم.

وقلنا له: ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن

(١) التوبة ٢٤.

هذا. فقال: والله لا أغضض، قال الإعرابي: المرء يحب القوم ولّما يلحق بهم. قال النبي ﷺ: **«المرء مع من أحبَّ يوم القيامة»**[1].

ففي هـذا الحديث بيـان فضـل حب الله ورسـولـه والأخيـار الصـالحـين من المؤمنين.

قال أنس رضى الله عنه: فما فرحنـا بعد الإسـلام فرحـاً أشد من قـول النبي ﷺ **«فإنك مع من أحببت»**[2].

قال القرطبي: وإنما كان فرحهم بهذا القول عنه ﷺ أشـدَّ من فرحهم بسـائر أعمال البر، لأنهم لم يسمعوا أن في أعمال البر ما يحصل به ذلك المعنى من القرب من النبي ﷺ والكـون معه الا حبّ الله ورسـوله، فـأعظم بـأمر يلحق المقصرَ بالمشمِّر، والمتأخر بالمتقدم. ولما فهم أنس أن هذا اللفظ محمول على عمومه علق به رجاءه وحقق فيه ظنه فقال: أنا أُحب الله ورسوله ﷺ وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بعملهم.

وقد بيَّنَ النبي ﷺ حدود المحبة اللازمة عندما قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا رسول الله لأنت أحبُّ اليَّ من كل شيء إلا من نفسي.

فقال: **لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب اليك من نفسك.**

فقال له عمر: فإنك الآن والله لأنت أحب اليّ من نفسي.

فقال: **الآن يا عمر»**[3]. وعلامةُ هذه المحبة اتباع الرسول ﷺ، وعدم التقدم عليه بالقول أو العمل، فلا يكون رأي الانسان أحبَّ اليه من حـديث الرسـول ﷺ وحُكمه، وعلامةُ حدود المحبة وبلوغها المرتبة الواجبة أن تكون نصرةُ السنَّة والذبُّ عن الشريعة أحبَّ لـديه من رعـاية مصـالحه والحفـاظ على نفسـه وأهله

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (سنن ٥/٥٤٥ حديث رقم ٣٥٣٥). وأخرجه البخاري في صحيحـه ١١٢/٧ ـ ١١٣ شـاهـداً مختصـراً من حـديث ابن مسعـود، ومسلم في صحيحـه ٤/٢٠٣٤ حديث رقم ٢٦٤٠ شاهداً ومختصراً أيضاً من حديث ابن مسعود.

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٠٣٢ حديث رقم ٢٦٣٩.

(١) صحيح البخاري ٢١٨/٧.

ومـاله وجـاهه، لقـول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكـون أحبَّ اليـه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[1].

وقوله: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الايمان، أن يكون الله ورسولُهُ أحبَّ اليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه الا لله، وأن يكره أن يعود في الكفـر كما يكـره أن يقذف في النـار**»[2]. قال البيضـاوي: المراد بـالحب هنـا الحب العقـلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقـل السليم رجحانـه، وإن كان عـلى خلاف هـوى النفس؛ كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، ويميل اليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى الا بما فيـه صلاح عـاجل أو خلاص آجل. والعقـل يقتضي رجحان جـانب ذلك، تمـرن على الائتـمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له، ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً، إذ الالتذاذ العقـلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هـو كذلـك. ومما يستـدعي محبة الـرسول التفكـرُ في عظم رسالته وجهاده في تبليغها طيلة حياتـه، حرصـاً على هـداية أكـبر عدد من الناس، حتى ان الله تعالى امتنَّ على العباد ببعثته ﷺ فقال تعالى: ﴿**لقد منَّ الله عـلى المؤمنين إذ بعث فيهم رسـولاً منهم يتلو عليهم آياتـه ويـزكيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[3].

وجاء في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ خـرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا لدينه ومنّ علينا بك.... فقال لهم: «**أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يُباهي بكم الملائكة**»[4].

وهذه المحبة التي ربطت بين النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم حملتهم على افتدائه بأرواحهم وأهليهم وأموالهم.

هذا أنس بن النضر رضي الله عنه رأى بعض المسلمـين قعوداً محتـارين، بعد

---

(١) صحيح البخاري ١/٩، وصحيح مسلم ١/٦٧ حديث رقم ٧٠ واللفظ له.
(٢) صحيح البخاري ١/٩ وصحيح مسلم ١/٦٦ حديث رقم ٤٣.
(٣) آل عمران ١٦٤.
(٤) صحيح مسلم ص ٢٠٧٥ وسنن الترمذي حديث رقم ٣٣٧٩ واللفظ له.

أن أشاع المشركون خبر مقتل رسول الله ﷺ في غزوة أحد، فصاح بهم: «واها لريح الجنة أجد دون أُحُد» فقاتل حتى قُتل، ووجد في جسده بضع وثمانون أثراً من بين ضربة ورمية وطعنة، حتى ما عرفته أخته الربيع بنت النضر الا ببنانه، ونزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين هذه الآية **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾**[1].

وقد أرسل الرسول ﷺ زيد بن ثابت بعد المعركة يتفقد أنس بن النضر، فوجده بين القتلى وبه رَمَق، فما كان منه - بعد أن ردَّ على سلام الرسول ﷺ الا أن قال: «أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار، لا عذر لكم عند الله إن يخلص الى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، وفاضت عيناه[2].

فيا لها من وصية تفوح بالحب الذي لا يؤثر فيه الموت وآلام الجراح. وكان أبو طلحة الأنصاري يحمي الرسول ﷺ ويرمي بين يديه ويقول: «لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك»[3].

ورغم هذا الحب العميق لرسول الله ﷺ ومفاداتهم له بالنفس والنفيس، فإنَّ عقائد المسلمين استقامت بفضل الله، فلم يتجاوزوا صفة النبوة، ولم ينسبوا الى نبيهم صفات الألوهية، ولم يعبدوه من دون الله، بل كان صوته ﷺ يتردد في عقولهم (**أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**)[4] ومن قبله تذكير القرآن ببشرية الرسول ﷺ **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليَّ﴾**[5].

وأنه يصيبه ما يصيب البشر **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**[6].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/٢١، ٧/٢٧٤، ٨/٥١٧).
(٢) الهيثمي: مجمع البحرين ٢/٢٣٩ من رواية ابن اسحق باسناد رجاله ثقات.
(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٣٦١).
(٤) صحيح سنن ابن ماجة ٢/٢٣٢.
(٥) سورة الكهف، الآية ١١٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

أمهات المؤمنين

إن تصفّح سيرة المصطفى ﷺ يعطي صوراً مشرقة عن خلقه الكريم عليه الصلاة والسلام في معاملة الناس جميعاً، ولكن سلوكه في بيته ومع أزواجه له دلالته الخاصة على رقّة طباعه، وعمق عاطفته، وقدرته الفذّة على مراعاة مشاعر أزواجه واحترام رغباتهن، ما دامت لا تخرج عن حدود الشرع وأحكامه.

هذه عائشة رضي الله عنها تحج معه ﷺ فتمنعها حيضتها من أداء العمرة مع الناس، فلما أراد الرسول ﷺ العودة الى المدينة قالت: يا رسول الله تعودون بحج وعمرة، وأعود بحجة وحدها. فإذا بالرسول الكريم يشفق أن تعود زوجه وهي تشعر بفوات بعض الفضل والخير عليها، فيتوقف ويطلب من أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أن يصحبها الى التنعيم حيث تحرم بالعمرة[1]..

وفي غزوة المريسيع (بني المصطلق) يوقف الجيش كله لأن عقداً لعائشة انفرط منها فهي تجمع حباته من بين الرمال.. وعندها تحضر الصلاة ولا يجد المسلمون الماء للوضوء فتنزل آية التيمم ويعبّر أحد الصحابة عن إحساسه بالحب لأبي بكر وآله واعترافه بفضل هذه العائلة وبركتها يقول: «هذه احدى بركاتكم يا آل أبي بكر»[2].

---

(١) صحيح البخاري ٢/٢٠٠ - ٢٠١ (ط. استنبول).
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١/٤٣١).

وروى البخاري أنه ﷺ لما رجع من غزوة خيبر وتزوج صفية بنت حييّ كان يدير كساءً حول البعير الذي تركبه يسترها به، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب!!

ولم يكن هذا المشهد بعيداً عن أعين الناس، بل كان على مشهد من جيشه المنتصر. كان يعلمهم أن الرسول البشر والنبي الرحمة والقائد المظفر لا ينقص من قدره أن يوطىء أكنافه لأهله، وأن يتواضع لزوجه، وأن يعينها ويسعدها.

ويتجلّى موقف رائع يصور عظمة خلق الرسول الكريم حين دخل على امرأة كان قد عقد عليها هي الجونية، روى البخاري من حديث أبي أسيد الساعدي قال: «خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا الى حائط يقال له الشَّوط حتى انتهينا الى حائطين جلسنا بينهما، فقال النبي ﷺ: اجلسوا ها هنا، ودخل، وقد أُتي بالجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها ـ حاضنة لها ـ فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: هبي نفسك لي. قالت: وهل تهب المَلِكةُ نفسَها للسّوقة (ولم تعرف أنه رسول الله) قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن. فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: قد عذتِ بمعاذ، ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد أكسها رازقيَّين وأَلحِقها بأهلها»[٢].

لم يغضب رسول الله ﷺ ولم يعنِّف المرأة، بل لم يجهر أمامها بطلاقها، وإنما أمر أبا أسيد أن يمتعها بالثياب ويعيدها الى أهلها.

والمتأملُ في سيرة الرسول ﷺ يشهد الكثير من الأمثلة الرائعة على حسن ذوقه، وجميل طبعه، وكرم خلقه، وحسن معاشرته، ورفق معاملته، واعتدال مزاجه، وعدالة أحكامه، وصدق كلامه... وهذا الكمال الخلقي من أعظم أدلة نبوته عليه الصلاة والسلام. فقد كان الصدق يملأ حياته، ويحكم علاقاته، ويطبع أقواله وأفعاله، فلا غرابة اذا كان أول المسلمين المؤمنين بدعوته هم أقرب الناس اليه وأعرفهم به؛ خديجة رضي الله عنها زوجُهُ، وعلي رضي الله عنه ابن عمه، وأبو بكر الصديق صاحبه، وزيد بن حارثة مولاه، والكل ظلوا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب من غزا بصبي للخدمة ٦/٨٦.
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٩/٣٥٦).

أوفياء لدعوة الإسلام طيلة حياتهم يفدونها بالنفس والنفيس.

ويشهد الانسان طابع الصدق في علاقاته ﷺ بأزواجه، فهو الرسول البشر، ليس فيه تعاظم وكبرياء الأقوياء بجاههم أو غناهم، بل فيه سماحة الأنبياء، وندى العظماء، وسيرة الأتقياء، تجده يحنو على أزواجه ويعينهن، فيقمّ بيته بيده، ويحلب الشاة، ويخرز النعل، ويتلطف اليهن، ويداري غضبهن، ويعدل بينهن، ويراعي ما جبلن عليه من الغَيرة، ويحتمل هفواتهن، ويرفق بصغيرتهن، وهكذا عاش الرسول البشر عيشة انسان لا مَلاك، تلتصق خطواتُه بالأرض وقلبه معلّق بالسماء، يهفو الى ما عند الله، ويهتف متواضعاً «**إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**»[1].

ولنعرض لنماذج أخرى من حياة الرسول البشر في بيته: حيث تعيش أمهات المؤمنين في غرفهن الصغيرة بجوار المسجد النبوي، تمتزج حياتهن بأصوات الأذان للصلوات، ويشهدن جموع الناس مقبلين مدبرين، يصلون ويستمعون لأحاديث الرسول ﷺ، ويشتركن في بيان تعاليم الاسلام، وخاصة في شؤون المرأة، حين يتعذر على النبي ﷺ ـ لحيائه ـ البيان. ثم لهن حياة خاصة مع الرسول ﷺ حافلة بالعبادة وبالعلم، مليئة بالعبر، دافقة بالخير. ولا تخلو من الجدل والخصومة حيناً، والغَيرة حيناً آخر. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما علمتُ حتى دخلت عليَّ زينبُ بغير إذن وهي غَضبى، ثم قالت: يا رسول الله أَحَسْبُكَ اذا قلبت لك بُنَيةُ أبي بكر ذُرَيعَتَيها ـ أي ساعديها ـ؟ ثم أقبلت عليَّ، فأعرضتُ عنها، حتى قال النبي ﷺ: دونك فانتصري. فأقبلتُ عليها حتى رأيتُها وقد يبس ريقها في فيها ما تردُّ عليَّ شيئاً، فرأيت النبيَّ ﷺ يتهلّلُ وجهُه»[2].

وهنا نلمس تقدير النبي ﷺ لغَيرة الضرائر من بعضهن، ومراعاته للفطرة، فقد ترك زينب تفرغ غضبها وأذن لعائشة أن ترد عليها، وعدل بين زينب ـ وهي بنت عمه وزوجه ـ وعائشة ـ وهي بنت صاحبه وزوجه ـ ولم يغضب من

---

(١) ابن سعد: الطبقات ١/٢٣ باسناد صحيح.

(٢) البخاري: الأدب المفرد ٥٥٨ باسناد صحيح.

هذه الملاحاة، فهي أمر طبيعي في حياة الضرائر. بل لم تتغير ملامح وجهه الى العبوس لتكدير صفوه، بل علته ابتسامة رقيقة وهو يشهد انتصاف عائشة من زينب.

وكانت زينت بن جحش تطاول عائشة وتفاخرها في الحظوة عند رسول الله ﷺ، كما ذكرت عائشة في حديث الإفك[1]. وكانت تفخر بأن الله تعالى زوجّها من الرسول ﷺ، فأنزل في ذلك قرآناً **﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكَها لكيلا يكون على المؤمنين حَرَج في أزواج أدعيائهم اذا قضَوا منهن وطراً﴾**[2]

أما عائشة رضي الله عنها فكانت البكر الوحيدة من أزواجه ﷺ، وكانت تُدِلُّ بذلك وتشير اليه بذكاء وفطنة امتازت بها؛ تقول: «يا رسول الله أرأيتَ لو نزلتَ وادياً وفيه شجرة قد أُكل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها في أيِّها تُرتِع بعيرك؟ قال: في التي لم يُرتع منها. تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها»[3] وهذا الإدلال المقبول لا يخالف الحقيقة ولا يجانب الصدق، فليس من ضرر في استجابة الرسول ﷺ وارضائه لهذا الادلال والاعتزاز، وادخاله بذلك السرور على قلب زوجه.

وكان رسول الله ﷺ يغضب اذا تجاوزت الغيرة حدها، واعتدت على حقوق الآخرين، فلم يكن زمام الموقف يفلت من يده بل كان يبيِّن الخطأ ويقوِّمه. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غِرتُ على خديجة وما رأيتُها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلتُ له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة الا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[4].

وهكذا كان عظيم وفائه لزوجه خديجة أول من آمن به وآزره، وتحمل معه أعباء دعوته، كان يذكرها دائماً ويثني عليها أبداً، ويصل صديقاتها ومعارفها،

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٧/٤٣١.
(٢) الأحزاب ٣٧.
(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٩/١٢٠).
(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري (فتح الباري ٧/١٣٣)

ويفرح للقاء أقاربها ويكرمهم حتى غارت أم المؤمنين عائشة لإكثاره من ذلك وإلا فهل يغار الحي من الميت!!

ولم يمنعه حبه لعائشة أن يصرِّح بفضل خديجة ومكانها في قلبه، ولو في ذلك الموقف الذي ظهرت فيه غيرتها. بل لم يكتم حبَّه لها وقد مضت على وفاتها أكثر من خمس سنين؟ فقال لعائشة: «إني قد رُزقت حبَّها»[1]! فما أعظمَ وفاءَه وما أرحبَ قلبه وما أصدقَ لسانه، وما اصرحَ وأفصحَ تعبيره!؟

إنَّ محمداً الرسولَ البشرَ لا يجد غضاضة في أن يحب امرأته، وأن يصارحها بذلك معبراً عن عاطفة خيرة، ويكتم كثيرون سواه عواطفهم تجاه أزواجهم لئلا يخدش كبرياءهم، أو يقل احترامهم فيما يحسبون وهم مخطئون. روى البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال لرسول الله ﷺ: أي الناس أحبُّ اليك؟ قال: عائشة[2].

وكان عليه الصلاة والسلام يراعي صغر سن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحبها للّعب مع صديقاتها، قالت عائشة:

«كنت ألعبُ بالبنات ـ أي اللُّعب ـ عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ اذا دخل يتقمَّعن منه ـ أي يختفين ـ فيسربهُنَّ اليَّ فيلعبن معي»[3]. وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ توصي المسلمين بمراعاة ذلك مع أزواجهم حديثاتِ السن تقول: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر الى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو»[4].

وهكذا سبق الاسلام نظريات التربية الحديثة في اعطاء الحرية للصغير في اللعب والتسلية البريئين.

بل قد ذكرت عائشة رضي الله عنها: «أنه كان لها بنات ـ تعني اللُّعب ـ وكان

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٨٨٨ حديث رقم ٢٤٣٦.
(٢) متفق عليه (صحيح البخاري ٨/٧٤ وصحيح مسلم ٤/١٨٥٦ حديث رقم ٢٣٨٤).
(٣) صحيح مسلم ٤/١٨٩٠ حديث رقم ٢٤٤٠.
(٤) متفق عليه (صحيح البخاري ـ فتح الباري ٩/٣٣٦. وصحيح مسلم ٢/٦٠٩).

اذا دخل النبي ﷺ استتر بثوبه منها. قال أبو عوانه: لكي لا تمتنع[1].

ولم يجد الرسول ﷺ غضاضة في أن يسابق عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرتين في منأى عن الناس لإدخال السرور على قلبها. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: تقدَّموا فتقدَّموا. ثم قال لي: تعالي أسابقك، فسابقته فسبقتُهُ، فسكت عني حتى اذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس: تقدموا فتقدموا ثم قال: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقني فجعل يضحك وهو يقول: هذه بتلك»[2].

وكان يتلطف معها بالكلام ويداعبها قال لها مرة: إني لأعلم اذا كنت عنّي راضية، واذا كنت عليّ غَضبى. قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟

قال: أما اذا كنتِ عني راضية فإنك تقولين لا وربِّ محمد. واذا كنت غضبي قلت: لا وربِّ ابراهيم. قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر الا اسمك»[3].

فما أحسن هذه المعاشرة وما ألطف رسول الله ﷺ وما أحسن خلق عائشة رضي الله عنها مع زوجها الرسول الكريم.

وكان رسول الله ﷺ رقيق الطبع، حسن العشرة، عميق العاطفة، لكن هذه الخصال لم تؤثر على التزامه الدقيق بالعدل بين نسائه أمهات المؤمنين، وهو التزام بشرع الله تعالى الذي بلّغه للناس وبيّنه لهم قال تعالى: **﴿وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾**[4].

والرسول ﷺ تزوج في شبابه خديجة رضي الله عنها، ولم يتزوج عليها حتى توفيت، فتزوج سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٧/٦٥ بإسناد صحيح.

(٢) احمد: المسند ٦/٢٦٤ بإسناد حسن، وأبو داود: السنن ٢/٢٨ مختصراً.

(٣) متفق عليه (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٩/٣٢٥ وصحيح مسلم ٤/١٨٩٠ حديث رقم ٢٤٣٩.

(٤) سورة النساء، الآية ٣.

زينب بنت خزيمة، ثم أم سلمة بنت أبي أمية، ثم جويرية بنت الحارث، ثم زينت بنت جحش، ثم أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم ميمونة بنت الحارث. وقد اجتمعت النسوة التسع في حياته ﷺ، وهذا من خصائصه لأن الاسلام لم يبح الجمع ـ بالزواج ـ لأكثر من أربع من النساء.

وكانت لكل زوجة غرفة صغيرة، فيها أثاث بسيط لا يكاد يزيد ثمنه على عشرة دراهم، وكان زواجه من كل واحدة يتصل بهدف يحقق مقاصد الاسلام، فعائشة رضي الله عنها تمتاز بحدَّة الذكاء، وصفاء الذهن، وجودة القريحة، فحفظت من تعاليم الرسول ﷺ الكثير، فنفعت وانتفعت، حتى بلغ عدد أحاديثها التي روتها عشرة ومائتين وألفي حديث. ولو قورنت رواياتها بعدد روايات أمهات المؤمنين الأخريات لاتضحت الحكمة من هذا الزواج، فإن أكثرهن حديثاً بعد عائشة هي أم سلمة بنت أبي أمية، ولم يتجاوز عدد أحاديثها ثمانية وسبعين وثلثمائة حديث، وشتان ما بين الرقمين!، وأما الأخريات فقد روت ميمونة ستة وسبعين حديثاً، وروت أم حبيبة بنت أبي سفيان خمسة وستين حديثاً، وروت حفصة بنت عمر ستين حديثاً، وروت كل من جويرية وسودة بنت زمعة خمسة أحاديث، وروت زينت بن جحش تسعة أحاديث، وروت صفية عشرة أحاديث، ولم تروِ زينت بنت خزيمة شيئاً. فلو جمعنا حديث سائر أمهات المؤمنين لبلغت ثمانية وستمائة حديث فقط وهو أقل من ثلث عدد أحاديث عائشة!!

هذا فضلاً عن فقهها وفتاويها وخاصة في شؤون المرأة. وكان زواجه من عائشة رضي الله عنها بعد رؤيا تكررت، مما يدل على أن الزواج منها كان بإرشاد الوحي لأن رؤيا الأنبياء حق، وهي جزء من الوحي. روى البخاري قالت عائشة: «قال رسول الله ﷺ: **«أريتُك قبل أن أتزوجك مرتين، رأيت المَلَك يحملك في سَرَقة من حرير فقلت له: اكشف، فكشف فإذا هي أنت. فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمضِه»**. وقد تكررت الرؤيا كما أخبر عليه الصلاة والسلام[1]. أما سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ فكانت ثيباً كبيرة السن،

(١) متفق عليه (صحيح البخاري ٨/٧٥ ـ ٧٦ وصحيح مسلم ٤/١٨٩٠ حديث رقم ٢٤٣٨).

تزوجها على أثر وفاة خديجة رضي الله عنها، لترفق بأولاده الصغار من خديجة، وتطييباً لخاطرها فقد كانت زوجة للسكران بن عمرو، وكان مسلماً فهاجر بها الى الحبشة، ثم رجعا فمات زوجها بمكة، وكان أبوها شيخاً كبيراً أقعدته السن، وكان أخوها عبد بن زمعة مشركاً عنيداً، حتى حثا التراب على رأسه عندما علم بزواجها من رسول الله ﷺ[1]. أفليست هذه الظروف المحيطة بهذا الزواج تكشف عن طبيعة دوافعه وحقيقة مقاصده. من حماية الأيِّم وحضانة الأولاد؟

ولما كبرت سودة خشيت أن يطلقها الرسول ﷺ، فآثرت عائشة رضي الله عنها بيومها وليلتها، لتبقى في عصمة الرسول ﷺ[2]، فنزل قوله تعالى: **﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾**[3] قالت عائشة في سبب نزول الآية: لا يستكثر منها، فتكون لها صحبة وولد، فتكره أن يفارقها فتقول له: أنت في حلٍّ من شأني»[4]. وهكذا بقيت سودة في عصمة الرسول ﷺ حتى وفاته لتبعث في أزواجه يوم القيامة.

وأما حفصة بنت عمر - رضي الله عنها - فقد توفي زوجها الصحابي خنيس بن حذافة السهمي بالمدينة، فتزوجها رسول الله ﷺ إكراماً لأبيها.

وأما زينب بنت خزيمة فكانت متزوجة من عبيدة بن الحارث، فاستشهد بعد بدر، فتزوجها رسول الله ﷺ جبراً لخاطرها.

وأما أم سلمة بنت أبي أمية فقد مات زوجها أبو سلمة بالمدينة، بعد إصابته بجراح في أُحُد تاركاً معها ولدين وبنتين، فتزوجها رسول الله ﷺ تكريماً لها ورعاية لأولادها.

وأما جويرية بنت الحارث فكانت بنت رئيس قبيلتها بني المصطلق، وقعت

---

(١) مسند أحمد ٢١١/٦ بإسناد حسن كما في فتح الباري ٢٢٥/٧.

(٢) صحيح مسلم ١٠٨٥/٢ حديث رقم ١٤٦٣ ورقم ١٤٦٤. وأنظر الأحاديث في سنن أبي داؤد ٦٠١/٢ - ٦٠٢ وسنن الترمذي ٢٤٩/٥ وقال: حسن غريب.

(٣) سورة النساء، الآية ١٢٨.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٢٦٥/٨ وصحيح مسلم ٢٣١٦/٤).

أسيرة مع نساء قبيلتها، فكانت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته، ثم جاءت الى الرسول ﷺ تستعينه في قضاء المكاتبة، فعرض عليها الزواج وقضى عنها كتابتها وتزوجها. فلما علم الناس بذلك قالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فأعتقوا سائر السبي «فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها» وقد قصد الرسول ﷺ بالزواج منها تكريمها، وتأليف قلوب قبيلتها، وإطلاق سبيهم، وقد أثمرت هذه المعاملة الحكيمة ثمرتها فأسلم بنو المصطلق.

وأما زينب بنت جحش فهي ابنة عمة الرسول ﷺ، زوَّجها الرسول ﷺ من مولاه زيد بن حارثة، فكانت لا تشعر بأنه كفؤ لها لمكانها من قريش مما أدى الى إخفاق الزواج، وقد تدخل الرسول ﷺ للإصلاح بينهما دون جدوى حتى نزل الوحي الإلهي يأمره بالزواج منها، لإبطال عادة جاهلية تتمثل بالتبني، وما كان يترتب عليه من آثار، منها عدم زواج الرجل من زوجة متبناه، وقد شق الأمر على الرسول ﷺ، ولكن لم يكن في وسعه الا طاعة أمر الله، فكان أن تزوج منها، ولو كان الأمر يتعلق برغبة في الزواج منها لفعل قبل أن يزوجها من مولاه زيد.

وأما صفية فقد كانت سيدة قومها، ووقعت في السبي في غزوة خيبر فأسلمت، فأعتقها الرسول ﷺ وتزوجها حفاظاً على مكانتها.

وأما ميمونة بنت الحارث فكانت أرملة كبيرة السن، وهي قريبة الرسول ﷺ، ولم تمكث بعد زواجها إلّا يسيراً.

وبعد هذا العرض لملابسات زواجه ﷺ تتبيَّنُ حقيقة مقاصده من الزواج، وهي مقاصد الاسلام في تأليف قلوب الناس، واجتذابهم الى الاسلام، ورعاية الأرامل، وتربية اليتامى، وحفظ تعاليم الدين، وخاصة ما يتعلق منها بشؤون المرأة.

أفبعدَ هذا يجترىء المتشدقون فيمدّون ألسنتهم بالأراجيف الباطلة، والتهم الكاذبة لتشويه صفحة طاهرة من جوانب حياة النبي الكريم، وكأنه أمضى حياته في النعيم، وقضى وقته مع الزوجات العديدات، متناسين زهده وشظف عيشه حتى ضاقت بذلك أمهاتُ المؤمنين، وطلبن التوسعة عليهن في النفقة، فنزلت آية التخيير وهي قوله تعالى: **﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كُنتن تردْن**

الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾[1].

فأمره الله تعالى أن يخيِّر أزواجه بين بقائهن معه، واحتمالهن عيشه وزهده، وبين الطلاق مع إعطائهن حقوقهن وتكريمهن، وقد اختارت أمهات المؤمنين البقاء في عصمته. وقد ذكرت عائشة «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمر الله أن يخيِّر أزواجه» قالت: «فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «**إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري - أي تستشيري - أبويك**»، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه.

قالت: ثم قال: إن الله قال: **﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾** الى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»[2].

أما بقية أزواجه - رضي الله عنهن - فقلن كما قالت عائشة، فصبرن على ضيق النفقة وقلة المؤونة، رغم أنهن من عقيلات قريش والعرب، وعشن قبل الزواج في ثراء الآباء، وتذوقن رغد العيش، واعتدن على كريمه، لكنهن آثرن عند تخييرهن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة.

وقد استفاضت الروايات في بيان قلة الطعام في بيوت رسول الله ﷺ، فما كان أهله يشبعون من خبز الشعير يومين متتالين، وكان جل طعامهم التمر، وحتى التمر ما شبعوا منه حتى فتحت خيبر، وأما اللحم وخبز البر والسمن والقثاء فقلما كانوا ينالونه، وقد يمضي عليهم الشهر والشهران ما يوقدون ناراً تحت قدر لا لخبز ولا لطعام إلّا نادراً، مكتفين بالتمر والماء، وقد يبيتون الليالي طاوين، لا يجدون عشاء. لقد خيِّرنَ فاخترنَ متطلعاتٍ الى الرفيق الأعلى **﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾**.

لقد انتبه كارلايل Carlyle الى ظاهرة الزهد في حياة الرسول ﷺ فقال: «لم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٨ و ٢٩.

(٢) متفق عليه (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٥١٩/٨، وصحيح مسلم ١١٠٣/٢ حديث رقم ١٤٧٥).

يكن محمد في حياته الشخصية من عشاق اللّذة على الاطلاق، فقد كان متاع بيته يعد من أكثر الأمور اعتدالاً، ومع ذلك فلم يحظ أي قيصر بتاجه بالطاعة مثلما حظي هذا الرجل بردائه الذي كان يرقعه بيده»[1].

واعتبر دروزة هذه الحادثة وما نزل فيها من قرآن «أقوى رد على سفهاء المبشرين ومغرضي المستشرقين الذين حاولوا النيل من أخلاقه الكريمة في نسبتهم حب الدنيا ومباهجها وشهواتها اليه، مع ما كان منه من استغراق في الدعوة وابتعاد عن ذلك في مكة، وتبدو قوة الرد حينما يلاحظ أن الآيات قد نزلت في أواسط العهد المدني وبعد أن تمكن من القضاء على أعدائه. . .»[2]

إن قصة زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش أثارت جدلاً طويلاً لذلك يلزم تفصيل خبر هذا الزواج الذي نزل فيه قرآن. قال تعالى: **﴿واذ تقول للذي أنعمَ الله عليه وانعمتَ عليه أمسِكْ عليك زوجك واتق الله وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاهُ فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكَها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قَضَوا منهن وطراً وكان أمرُ الله مفعولاً﴾**[3].

لقد ورد في صحيح البخاري أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، وزينب هي بنت عمة الرسول ﷺ أميمة بنت عبد المطلب وزيد بن حارثة عربي من بني كعب، وقع في السبي في غارة على قوم أمه بني معن من طيء، فاشتُري لخديجة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فوهبته لرسول الله ﷺ، وقد رباه رسول الله وأحبه حتى ما كان يدعى إلا زيد بن محمد كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في الصحيحين[4]، وقد حاول حارثة والد زيد استعادة ابنه فرفض الابن الاّ البقاء مع رسول الله ﷺ. وقد زوّجه الرسول

---

(١) سيرة الرسول في تصورات الغربيين لجوستاف بفانموللر G.Pfannmülle ترجمة د. محمود حمدي زقزوق (ضمن بحوث مجلة مركز بحوث السنة والسيرة في قطر. العدد الثاني ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) ص ١٣٠.

(٢) محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ١/٥٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/٥١٧) وصحيح مسلم ٤/١٨٨٤ حديث رقم ٢٤٢٥).

الكـريم بمولاتـه أم أيمن، ثم زوّجه ابنـة عمته زينب بنت جحش، وقـد نـزلت الآيات الكريمة في شأن هـذاالـزواج الـذي لم يكتب له التـوفيق، والذي سجـل اسم زيد في كتاب الله تعالى حيث انفرد بهذا الذكر من بين سائر الصحابة.

ويظهر من مجموع الروايات التي يسوقها الطبري في تفسيره[1] أن الرسول ﷺ حـين خطب زينب بنت جحش لـزيد بن حـارثة، استنكفت منـه وأعلنت عدم رضاها به، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدَّة فأنزل الله ﴿**ومـا كـان لمؤمن ولا مؤمنـة اذا قضى الله ورسـولـه أمــراً أن يكـون لهم الخِيَـرةُ من أمرهم**﴾ فأسلمت زينب أمرها لله ولرسوله وكانت امرأة عابدة أوَّاهة، فـتزوجت زيداً دون رغبة فيه.

والحق أن الوحي الإلهي تدخل مباشرةً في عقد هذا الزواج، كما تدخل أخيراً في فصم عُراه، فهو زواج يهدف الى تحقيق أمر الله عز وجل في تغيير عُرف سـاد الحياة العربية في الجاهلية، وتأصل فيها حتى صارت له قدسية العقـائد واحـترام المحـارم، ذلك هـو نـظام التبني بحيث ينسب الابن المتبنَّى الى متبنيـه بـدلاً من أبيه، وتترتبُ على ذلك حقوق في الميراث والحرمة تماثـل حقوق الأبوة على البنوة من الصلب. ولا يخفى مـا في ذلك من افتئات عـلى الفـطرة ومجـانبـة للعـدل، وتجـاوز عـلى الأنسـاب، فضلاً عن أن التحـريم لا يكـون الا بـوحي الهي ولا يستطيع البشر ولو اجتمعوا أن يقرروا حرمة شيء أو حله.

ولكن كيف تبطل هذه العـادة فيقلع الناس عن التبني وينتهـون عن التحريم والتحليل من دون وحي إلهي؟

لقد اتجه الوحي الإلهي الى التعامـل مع الـواقع القـائم بصورة عمليـة كفيلة بالتغيير مباشرة، دون الاكتفاء بـالإعلان النـظري. وهذا التغيـير الواقعي أقـوى أثراً وأسرع في إحداث التغيير، فإقرار العدل يحتاج الى سرعة التغيـير، واجتثاث الانحـراف والـظلم، فكـانت قصـة زواج زينب بنت جحش من زيــد وقصـة انفصـالهما تحكي تـدخل الـوحي في أولها وآخـرها لإحـداث التغيـير السريـع في الواقع القائم. . . وهكذا كان.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٩ ـ ١١.

نـزلت زينب على قضـاء الله ورسـولـه، فـتزوجت زيـد بن حـارثـة، ولم يتم التوافق بين الـزوجين. وكلما اشتكى زيـد زوجَهُ للرسـول ﷺ قال لـه: **«أمسِك عليك زوجك»** مع علمه ﷺ بقضـاء الله تعالى، وتقـديره زواجـه من ابنة عمته زينب بعد طلاق زيد لها. . وعلمه هذا كان يُخفيه في نفسه. فمواجهـةُ الأعراف المستقرة في قضية خطيرة كان أمراً ثقيلاً، اذ كيف يـتزوج زوجة ابنـه ـ في عرف نـظام التبني الجـاهـلي ـ مـاذا تقـول العـرب ومـاذا يقـول ضعـاف الإيمان من المسلمين؟.

لم تكن زينب بعيدة عن رسول الله ﷺ، بـل كانت تحت عينـه وفي رعايتـه، فلو كانت له رغبة في الزواج منها لما زوجها من زيد بن حارثة ولكن مـا كان لـه بد من تنفيذ قضاء الله.

لم يطق زيد العيش مـع زوج لا تألفـه فكان أن طلقهـا، فلما انقضت عدتهـا ارسل الرسول ﷺ زيداً نفسه يخطبها له، ففعـل زيد ذلـك وبذلـك تبين انـه ما كان راغباً في استمرار زواجه بها، وكان راضياً عن زواجها برسـول الله ﷺ، اذ هو الذي قام بالخطوبة، وقـد ذهب زيد الى زينب خـاطباً لـرسول الله ﷺ، فلما رآها هابها واستجلَّها من أجل ارادة النبي ﷺ تزوجها، فعاملهـا معاملة أمهـات المؤمنين في الإعظام والإجلال والمهابة، كما يقول الإمام النـووي شارح صحيـح مسلم[1].

ويروي زيد بن حارثة قصة الخطوبة كما في روايـة صحيح مسلم من حـديث أنس بن مـالك قـال: «فانـطلق زيد حتى أتـاها وهي تخمِّـر عجينها. قـال: فلما رأيتهـا عظمت في صـدري حتى ما استـطيـع أن انـظر اليهـا أن رسـول الله ﷺ ذكرها، فولَّيتُها ظهـري، ونكصت على عقبي، فقلت: يـا زينب أرسل رسـول الله ﷺ يـذكرك. فقـالت: ما أنـا بصـانعـة شيئـاً حتى أوامـر ربي، فقـامت الى مسجدها، ونزل القرآن، وجـاء رسول الله ﷺ فـدخل عليهـا بغير اذن. . .»[2] وكان ذلك في ذي القَعدة في السنة الثـالثة أو الـرابعة أو الخـامسة عـلى اختلاف

---

(١) صحيح مسلم بشرح النوي ٢٢٨/٩.
(٢) صحيح مسلم ١٠٤٨/٢ (ط. استانبول).

الروايات قبل غزوة بني المصطلق، وقصة زواجها ترتبط بنزول الحجاب. فقد روى البخاري في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أمهاتي يواضبنني على خدمة النبي ﷺ، فخدمته عشر سنين، وتوفي النبي ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، كان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة، ثم ظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه، حتى اذا دخل على زينب، فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت معه حتى اذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم خرجوا، فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا. فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب»[1].

وكان رسول الله ﷺ صبيحة زواجه بزينب قد أولم عليها بشاة واحدة، وهي أعظم ما أولم على زوجة من أزواجه، كما في حديث أنس بن مالك الذي تقدم.

وكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات كما في صحيح البخاري[2].

وهكذا كانت حادثة الزواج خرقاً لعرف جاهلي سائد كان يؤدي الى توارث باطل يحجب أصحاب الحقوق الفعليين. ويحرِّم زواج الرجل من امرأة تحل له، بزعم أنها كانت زوجة ابنه، وإنما هو متبناه. قال تعالى: **﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾**[3]. ولم يكن للنبي ﷺ ابن بالغ مبلغ الرجال حين الخطاب، وقال تعالى: **﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانُكم في الدين ومواليكم﴾**[4].

---

(١) متفق عليه (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٩/٢٣٠ وصحيح مسلم ٢/١٠٥٠)

(٢) صحيح البخاري كما في فتح الباري ١٣/٤٠٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٥.

فـالعدل أن لا يُحـرم الوالـد من نسبة ولـده اليـه، وأن تعـود حقـوق الإرث والحرمات الى ما شرع الله تعالى في ذلك دون أهواء الناس وأعراف الجاهلية.

وقد يتصور البعض أن زيداً ـ رضي الله عنه ـ لم يكن كفؤاً للقرشيات، فالحق خلاف ذلك فهـو من أوائل المسلمـين السابقـين، زوّجه رسـول الله بعد طـلاقه زينب من عقيـلات قريش أم كلثـوم بنت عقبة وأروى بنت كـريز ودرة بنت أبي لهب وهند بنت العوام أخت الزبير.

وقد أملت الأهواء على بعض الرواة الضعفاء روايات لا يؤبه لقائلهـا بأن مـا كـان النبي ﷺ يُخفيه هـو محبةُ زينب ورغبتُـهُ في الزواج منهـا، والحق أن الوحي الالهي أوضح علة هذا الزواج بقوله تعالى: **﴿لكي لا يكون على المؤمنـين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً﴾**.

وقد أشارت الآية الى أن الله تعالى أنعم على زيد بـالاسلام، وأن محمـداً ﷺ أنعم عليه بالعتق والحرية، وارتضاه زوجاً لابنة عمته، وحاول جاهـداً الاصلاح بينهما، وكتم العلم بما سيكون من زواجه منها حتى طلقها زيـد ـ رضي الله عنه ـ فخطبها وتزوجها بأمر الله تعالى إبطالاً لعادة التبني، وإرجاعاً للحق الى نصابه.



فضل الصحابة ووجوب محبتهم وموالاتهم

ما هي خصائص الجيل الذي رباه محمد ﷺ فأقام دولة الاسلام، وخاض غمرات الجهاد ونشر دعوة الاسلام في الآفاق، وصار من أعظم الأدلة على نجاح التربية المحمدية، فإنه لم يسبق لنبي أن ربَّى جيلاً بكامله، كما فعل رسول الله ﷺ. فلنتعرف على هذا الجيل من خلال الكتاب والسنة والواقع التاريخي.

صفتهم في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿**محمدٌ رسول الله والذين معهُ أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهُمْ رُكَّعاً سُجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وُجوههم من أثر السّجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرعٍ أخرج شطئَهُ فآزره فاستغلظَ فاستوى على سُوقِهِ يُعجبُ الزُّرَّاع ليغيظَ بهم الكُفّار وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً**﴾[1].

هكذا يصف القرآن محمداً وصحبه، ذلك الجيل المثالي الذي حقق مستوى سامقاً في الارتقاء الروحي والخلقي، فصقلته العبادة وكساه الركوع والسجود نوراً وبهاءً، وحددت العقيدة مفاهيمه وقيمه وولاءه وبراءته ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ يوالون بعضهم ويحادّون من سواهم ﴿**أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على**

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

الكافرين﴾. ذلك الجيل الذي خلدته كتبُ السماء فوصفته التوراة والانجيل والقرآن بهذا الوصف الرائع، ممثلةً امتداد قيمه وانتشار عقيدته وكثرة أنصاره وقوة وجوده واستمساك أمره بالزرع الذي يتفرع وينتشر ويزداد ويشتد ساقه، يعجب أهله الذين غرسوه، ويغيظ الأعداء، وقد ذُكر عند الإمام مالك بن أنس رجل ينتقص الصحابة رضوان الله عليهم فقرأ الإمام مالك هذه الآيات حتى بلغ **﴿يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾** فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

ذلك الجيل الذي بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، وحفظ القرآن والسنة، ولو فرط فيهما ما وصلا إلينا سالمين محفوظين بحفظ الله تعالى، لذلك ذهب كثير من العلماء الى أن الطعن في جيل الصحابة إنما هو طعن في مصادر تلقينا للقرآن والسنة. وبالتالي فهو طعن بالدين.

ذلك الجيل الموصوف بالخيرية والأفضلية المطلقة على سائر الأجيال كما أخبر المصطفى ﷺ: «**خير الناس قرني. ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. إنَّ بعدكم قوم يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يُسْتَشهدون، وينذرون ولا يَفُون، ويظهر فيهم السِّمَنُ**»[1].

وهذه الخيرية تجعل من جيل الصحابة مُثُلاً عليا للمسلمين في كل زمان ومكان، فهم يتطلعون اليهم ويعتزون بهم، ويقتدون بأعمالهم، ويسترشدون بسيرهم، تلك السير المتنوعة في الحرب والسلم والعبادة والمجاهدة والمعاملة مما يكفل للمسلمين في مختلف العصور نماذج متنوعة صالحة للاقتداء.

ففي الحرب تجد الصحابة مؤمنين محتسبين مجاهدين ثابتين وصفهم القرآن في قوله تعالى: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**[2].

وهم في السلم هداة معلمون، ومصلحون عاملون، وصفهم رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (الصحيح ١٥١/٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٢.

بأنهم أَمَنةٌ لأمته، ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: **«النجومُ أَمَنَةُ السماء، فإذا ذهبت النجومُ أتى السماءَ ما تُوعد، وأنا أَمَنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنَة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»**[1].

ومعنى أَمنةُ أمتي: أي حَفَظَتهم كما أن الملائكة حفظة السماء، وهذا الحفظ للأمة بحفظهم لدينها، وقيامها بطاعة الله والتزام أوامره، ودعائهم للمسلمين، وذودهم عن الدين بالجهاد بالنفس والمال واللسان، لذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين في كل زمان ومكان بتوقير الصحابة واحترامهم ومحبتهم، ونهى عن أذاهم وتناولهم بالكلام الجارح والجرأة عليهم، ففي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أحداً أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصِيفَه»**[2]، أي ما بلغ القدر اليسير من فضلهم.

وقد بشَّر رسول الله ﷺ العديد من الصحابة بالجنة وهم: **«أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»**[3]. فهؤلاء هم المبشرون بالجنة. ولم يحظَ بذلك جيل سوى جيل الصحابة رضوان الله عليهم. ولم يكن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ متساوين في الفضل والدرجة، بل كانوا يتفاضلون في السابقة والجهاد وكثرة البذل في سبيل الاسلام، قال تعالى: **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكُلًّا وعد الله الحسنى﴾**[4] وقد فصلت الأحاديث الشريفة مقامات الصحابة وتفاضلهم ودرجاتهم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه حديث رقم ٢٥٣١.

(٢) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ٢٧/٧ و ٢٨ وصحيح مسلم حديث رقم ٥٤١).

(٣) الترمذي: سنن ٦٤٧/٥ ـ ٦٤٨ وانظر: صحيح البخاري ١٩٦/٤، ٩٧/٨، ١٣٦، وصحيح مسلم ١٨٦٨/٤ وسنن الترمذي ٦٢٣/٥، ٦٣١، ٦٤٥.

(٤) سورة الحديد، الآية ١٠.

روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال النبي ﷺ: **«اهدأ فما عليك الا نبيّ أو صدّيق أو شهيد»**[1] وهذا من علامات نبوته ﷺ فقد استشهد الخمسة الآخرون رضوان الله عليهم أجمعين.

ودلّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على خصائص بعض الصحابة العلمية أو الخلقية أو الجهادية، ارشاداً للأمة للأخذ عنهم والاقتداء بهم فقال: **«خذوا القرآن من أربعة، من عبدالله وسالم ومُعاذ وأبيّ بن كعب»**[2] وهم عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب.

وأشاد مرة بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وسماحته بماله ونفسه في سبيل الاسلام. روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس قال: «خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال إنَّه ليس من الناس أحد أمنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر ابن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خُلَّة الاسلام أفضل، سُدُّوا عني كل خَوخَة في هذا المسجد غيرَ خوخةِ أبي بكر»[3].

وأشاد ﷺ بعمر بن الخطاب فقال: **«إنَّ الله تعالى جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه»**[4].

وقال: **«لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناسٌ مُحَدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنه عمر»**[5].

وهكذا بين خصائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث صار رمزاً للعدل

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٤١٧ وقارن برواية البخاري في الصحيح ٤/٢٠٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ١٠٢/٦ وصحيح مسلم ١٩١٣/٤ حديث رقم ٢٤٦٤).

(٣) صحيح البخاري ١٢٠/١.

(٤) رواه الترمذي وقال: حسن غريب (سنن ٦١٧/٥ حديث رقم ٣٦٨٢).

(٥) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ٢٠٠/٤ وصحيح مسلم ١٨٦٤/٤ حديث رقم ٢٣٩٨).

في الإسلام، وبقيت سيرته الطافحة بالعدل الشامخ، والزهد في الدنيـا، والجهر بـالحق، والقيام بمصـالح الأمـة من تنظيم الدواوين، ووضع الخـراج، وتجهيـز الجيوش، وتحرير المجتمعات من ظلمات الجاهلية، والأخذ بيد الشعوب نحو نور الاسلام، وكرامـة الايمان، وعـدل الرحمن، فكـان ملهماً محـدثاً ذا فـراسة. كـما وصفه رسول الله ﷺ بالعمق في الدين والعلم، والعبقـرية في العقـل والاجتهاد والعمل.

وأشاد ﷺ بعثمان ذي النورين، الذي ما جمع أحـد بين بنتي نبي سـواه حيث زوَّجَهُ رسول الله ﷺ بنته رقية، فلما مـاتت زوّجه بنتـه الثانيـة أم كلثوم، لـذلك لقب بذي النورين. وقد بشّره رسول الله ﷺ بالجنة وبـالشهادة. فـافتدى الأمـةَ وحقنَ دماءها بدمه، ورفض الانصيـاع للأعـراب بالتنـازل عن الخلافـة بمشورة عبدالله بن عمر لئلا تصبح سُنَّةً كلما كره قوم إمامهم خلعوه أو قتلوه[1]. مما يـدل عـلى بصيرة سيـاسية، ووعي بـالسنن الاجتماعيـة، وقدرة عـلى اتخاذ المـوقف في أحرج الظروف ومع أشد التضحيات.

وأشاد ﷺ بعلي بن أبي طالب، وزوَّجه بنتَه فاطمة الزهراء البتول، وشهـد له بالجنة والشهـادة، وروى البخاري ومسلم أن رسـول الله ﷺ خلَّف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلِّفني في النسـاء والصبيان؟ فقـال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيَّ بعدي؟[2] وروى الإمام مسلم أنه ﷺ قال يوم خيبر: لأعطينّ الراية غـداً رجلاً يحب الله ورسـوله ويحبه الله ورسوله.. فدعا علياً فأعطاه الراية[3].

فهـذه نبـذ عن مكـانـة الصحـابـة الكـرام، ممـا يـوجب مـوالاتهم ومحبتهم والاستغفار لهم وحفظ حقهم ومكانتهم.

---

(١) خليفة بن خياط: التأريخ ١٧٠ باسناد حسن.
(٢) صحيح البخاري ٢٠٨/٤ وصحيح مسلم ١٨٧٠/٤ حديث رقم ٢٤٠٤.
(٣) صحيح البخاري ٢٠٧/٤ وصحيح مسلم ١٨٧١/٤.



مبادرة الصحابة الى طاعة الله

كانت أجيال المسلمين في القرون الأولى تقرأ القرآن وكأنه ينزل على كل واحد منهم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ غضّاً طرياً، وكانت لغة التخاطب بينهم هي الفصحى التي نزل بها القرآن، وقد أعانهم ذلك على فهم الخطاب الالهي بسهولة ويسر، كما ولّد الأثر القوي في نفوسهم، وسرعة الاستجابة التامة لتعاليمه وأحكامه.

ولا شك أن جيل الصحابة (رضوان الله عليهم) كان أسرع استجابة وأبلغ تأثراً، وأقدر على التخلص من عادات الجاهلية وتقاليدها وأعرافها، حتى لو كانت العادة الجاهلية قد استقرت منذ قرون وصارت عُرفاً مشروعاً وتقليداً مقبولاً.

قالت عائشة رضي الله عنها: «يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما أنزل الله: **﴿وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن﴾**[1] شققن مروطَهُنَّ فاختمرن به»[2].

ومن أبلغ المواقف التي بادر فيها الصحابة الى اعلان الطاعة مع إحساسهم بالمشقة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ **﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تُبدوا ما في أَنفسكم أو تُخفوه يُحاسبكم به**

(١) سورة النور، الآية ٣١.

(٢) صحيح البخاري ٦/١٣ مختصراً وقارن بسنن ابي داود ٤/٣٥٦ ـ ٣٥٧.

الله فيغفرُ لمن يشاء ويعذبُ من يشاء والله على كل شيء قدير﴾[1] قال: فاشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله كُلّفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة.

وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها؟.

قال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير**. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير. فأنزل الله عز وجل ﴿**لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ (قال: نعم) ﴿**ربنا ولا تحمل علينا أصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾ (قال: نعم) ﴿**واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ (قال: نعم)[2].

فهذا الحديث يفيد سرعة مبادرة الصحابة الى الطاعة حتى عندما يجدون في التكليف مشقة. وقد عرف الله تعالى منهم حسن الطاعة فأثابهم بالتخفيف عنهم والتوسعة عليهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهم عندما قرأ ﴿**لا يكلف الله نفساً الا وسعها**﴾ قال: هم المؤمنون وسَّعَ الله عليهم أمر دينهم فقال ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حَرَج**﴾[3]. وقال: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[4]. وقال: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[5][6].

وقد جاء في الحديث النبوي «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٤.
(٢) صحيح مسلم رقم الحديث ١٢٥. وقارن برواية سنن الترمذي رقم الحديث ٢٩٩٢.
(٣) سورة الحج، الآية ٧٨.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٨٥.
(٥) سورة التغابن، الآية ١٠٦.
(٦) تفسير الطبري ٣/١٥٤.
(٧) سنن ابن ماجة رقم الحديث ٢٠٤٥.

والحديث يوافق الآية ﴿ربنا لا تُؤخذنا إن نَسينا أو أَخطأنا﴾ حيث استجاب الله تعالى لهم فقال: نعم كما في صحيح مسلم.

قال ابن كثير في معنى الدعاء في الآية: «أي أن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي»[1].

وقد بينت الآية والحديث قاعدة عظيمة في تحديد المسؤولية فالانسان لا يسأل عن الخواطر التي تقع في نفسه ما لم يتكلم أو يعمل بها كما في صحيح مسلم قال ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلَّموا أو يعملوا به**»[2].

إذ لا يسيطر الانسان على الخطرات والصور التي ترد الى ذهنه، ومن هنا أحس الصحابة رضوان الله عليهم بالحرج عندما نزلت الآية ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ لكنهم بادروا بالطاعة فرفع الله عنهم الحَرَج، كذلك فالإنسان لا يُسأل الا عن الأعمال التي صدرت منه في حال العقل والعمد والاختيار، ومن هنا لم يُعتبر الكفر مع الإكراه قال تعالى: ﴿**إلا من أُكره وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمان**﴾ ولم يعتبر الطلاق للمجنون والمكره، ولم يعتبر ما أكله الصائم ناسياً قادحاً في صومه.

فهذا التيسير في الأحكام إنما كان ببركة مبادرة الصحابة الى الطاعة مع الإحساس بالمشقة.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ على المبادرة الى الطاعة، خوفاً من تغير الأحوال وإقبال الفتن والأهوال، مما يصرف الانسان أو يضعفه عن المبادرة الى الاحسان والطاعات، فقال: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيعُ دينه بعَرَض من الدنيا**»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل الى النبي ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٤٢ ـ ٣٤٣.
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث ١٢٧.
(٣) صحيح مسلم رقم الحديث ١١٨.

الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: **«أن تصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى اذا بلغت الحُلقوم. قلت: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان»**[1].

فالحديث يبيِّن أهمية المبادرة الى بذل الصدقة والمعروف، فالإنسان حين يبذل المال وهو في تمام صحته وعنفوان حياته، وهو اليه محتاج وعليه حريص، ينتابه الخوف من الفقر، وتتملكه الرغبة في جمع المال حباً له أو حيطةً لمستقبله ومستقبل عياله، هذا الانسان حين يتصدق ويبذل فإنه يكون قد نجح في الامتحان، فغلب توكُّله الصادقُ على كل الوساوس والخطرات، قال تعالى: **﴿الشيطانُ يعِدُكُم الفقرَ ويأمُرُكم بالفحشاء والله يعدُكُم مغفرةً منه وفضلاً والله واسع عليم﴾**[2].

فالشيطانُ اذا يورد على ابن آدم خواطرَ الشر والشك في وعد الله تعالى من الثواب على الأعمال الصالحة والصدقات وبذل المعروف ووَعْد رسول الله ﷺ بقوله: **«ما نقصت صدقةٌ من مال»**[3].

فيورد عليه الشيطان الوساوس يقول: أمسك عليك مالك فإنك تحتاجه، وبادر الى اللذات والتنعم بالدنيا قبل فواتها، يقول رسول الله ﷺ مبيناً الصراع الذي ينتاب الانسان بين وساوس الشر يلقيها الشيطان وخواطر الخير يلقيها الملاك: **«للشيطان لَـمَّةٌ بابن آدم وللمَلَك لـمة، فأمّا لَـمَّة الشيطان فإيعاد بالشرِّ، وتكذيب بالحق. وأمّا لَمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله، فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾**.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[4].

ولعل أقوى ما يدفع لـمّة الشيطان والقاءه الوساوس حال الاقتراب من

---

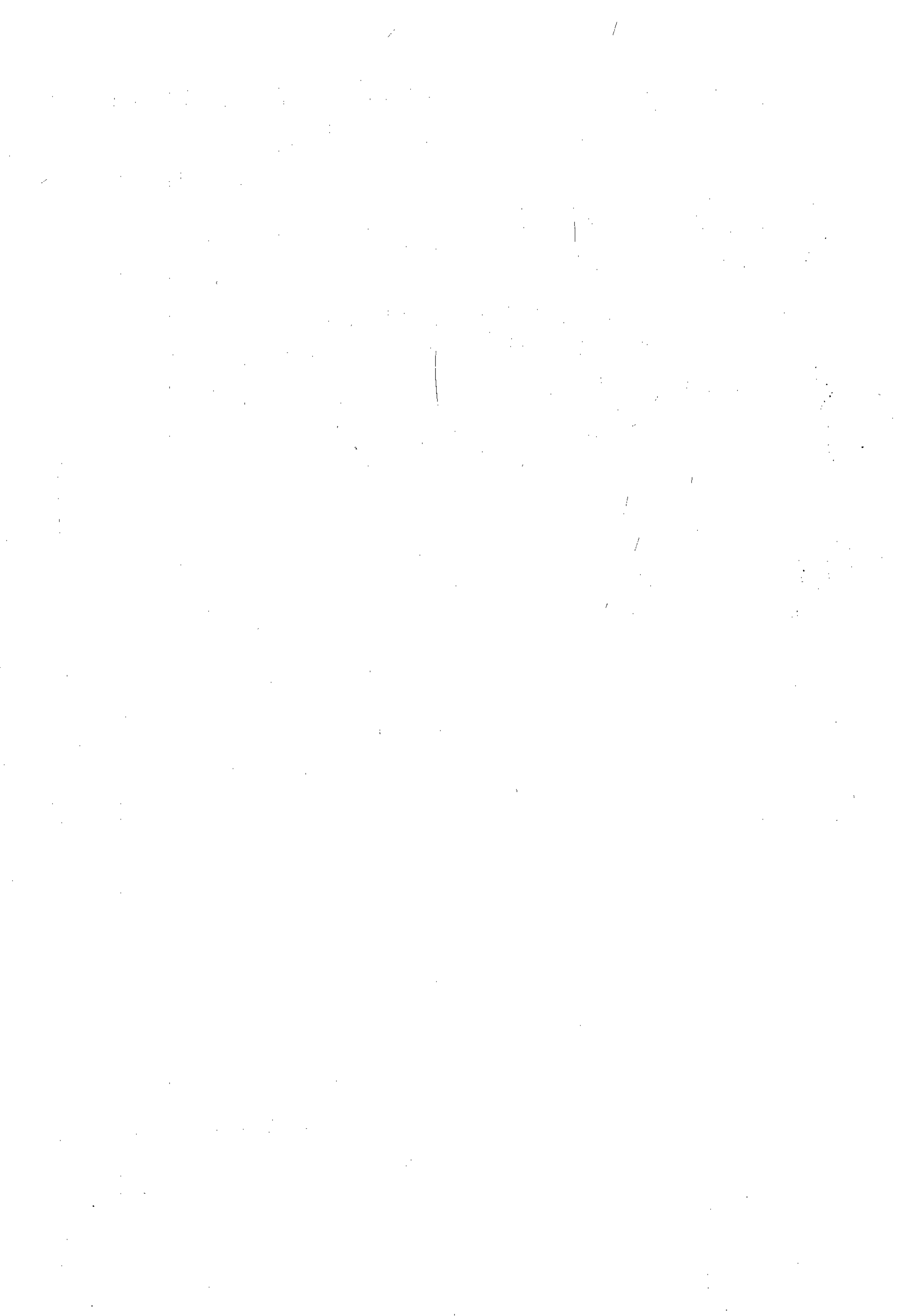
(١) صحيح البخاري ٢٢٦/٣ وصحيح مسلم رقم ١٠٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦٨.
(٣) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٨٨.
(٤) سنن الترمذي حديث رقم ٢٩٨٨ (ط. شاكر) والآية من سورة البقرة ٢٦٨.

الانسان أن يبادر الانسان الى فعل الطاعة، وبذلك يقطع السبيل على الوساوس والخطرات التي تستهدف إضعاف إيمانه والنيل من توكله على الله تعالى وتصديقه بوحيه وإخباره.

وقد روى الصحابي جرير البجلي رضي الله عنه: أن قوماً من المسلمين وفدوا على رسول الله ﷺ في أول النهار، فإذا هم عراة حفاة يلبسون أكسية الصوف وعليهم السيوف، فتغيَّر وجه الرسول ﷺ اشفاقاً عليهم، وجمع الناس، وحثهم على الصدقة، وقرأ عليهم الآيات في ذلك ومنها ﴿**اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد**﴾[1]. فتتابع الناس حتى جمعوا كومين من طعام وثياب، فتهلل وجه الرسول ﷺ فرحاً بمبادرة الصحابة الى معونة إخوانهم وطاعة ربهم[2].

---

(١) سورة الحشر، الآية ١٨.
(٢) صحيح مسلم ٢/٧٠٤ ـ ٧٠٥ حديث رقم ١٠١٧.



تجرد الصحابة للدعوة الى الاسلام

قال تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يُحبّون من هاجر اليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

هذه الآيات الكريمة نزلت في وصف المهاجرين والأنصار من صحابة رسول الله ﷺ، وهي توضح تجردهم لدعوة الاسلام، فلم يقف حب الديار والتعلق بالمال عائقاً أمام خدمتها، فلما أُمروا بالهجرة سارعوا اليها تاركين ما ألفته النفس من الديار، وما حازوه من المال تجرداً للدعوة، وابتغاء مرضاة الله التي تعلو على كل حظوظ النفس، وقد وصفتهم الآيات بالإيمان الصادق وتسديد النية في ابتغاء فضل الله ورضوانه، فليس لهم مطمع في المال والجاه والشهرة، وعندما يحين وقت البذل والعطاء نجد أيديهم سمحة بالمال ممدودة بالسخاء، لا تقف عند حدود بذل المال الزائد والفضل عن الحاجة بل تحقق ما هو أرفع... تحقق الإيثار على النفس المحتاجة.. فتحرم من حاجتها لتلبي حاجة العقيدة أولاً... لقد انخلع جيل الصحابة عن الشح ليحققوا الفلاح الذي وصفتهم به الآيات

(١) سورة الحشر، الآية ٨ ـ ٩

بعـد أن استحقوا صفـة النصرة لله وللرسول، وبـذلـك صـاروا رمـوزاً شـامخـة وأعلاماً هادية وقدوات سامقـة تتطلع أجيـال المسلمين اليهم بكـل فخر واعـتزاز وبكل تمجيد وتقدير، ومـا أحسن وصف ابن مسعود لأبنـاء جيله من الصحابـة حين قال: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمـد ﷺ فإنهم كـانوا أبـرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هـدياً، وأحسنهـا حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فـاعرفـوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهَدْي المستقيم».

نهض الصحابة رضوان الله عليهم بالدعوة الى دين الله، وعبَّروا عن مضامينه ومقـاصده أجمـل تعبير، ممـا يدل عـلى وعي عميق بـواقـع عصرهم، ومقـاصـد دينهم. . قال ربعي بن عامر لقائد الفرس رستم: «الله ابتعَثَنـا لنُخرج من شـاء من عبادة العباد الى عبادة الله، ومن ضيق الدنيـا الى سعتها، ومن جـور الأديان الى عدل الاسلام»[1].

وكـان الصحابـة يحملون رسالـة الى أهل الأرض، وكـان أشد فـرحهم عنـد دخول الناس في الاسـلام، وكانـوا بذلـك واعين لأهـدافهم حريصـين على نشر عقيدتهم مستوعبين لقوله عليه الصـلاة والسلام لعـلي رضي الله عنه يـوم خيبر: **«لئن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعَم»**[2].

وكانت قياداتهم بعد رسول الله ﷺ تؤكد هذا المعنى. . قال الصحابي الجليـل أنس بن مالك: «بعثني أبو موسى الأشعـري بفتح تُسْـتَر الى عمر، فسـألني عمر وكـان ستة نفـر من بكر بن وائـل قد ارتـدّوا عن الاسلام ولحقـوا بـالمشركـين ـ فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ قلت: يـا أمير المؤمنـين، قوم قـد ارتدوا عن الاسـلام ولحقوا بـالمشركين مـا سبيلهم الا القتل. فقـال عمـر: لأن أكـون أخـذتهم سلماً أحب الي مما طلعت عليـه الشمس من صفـراء وبيضـاء ـ أي من الذهب والفضة ـ.

قلت: يا أمير المؤمنين، وما كنت صانعاً بهم لو أخذتهم؟.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٢٨.

(٢) صحيح مسلم ٢/٢٧٩.

قال لي: كنت عارضاً عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم وإلاّ استودعتهم السجن»[1].

ولما عرض المُقَوقس على عمرو بن العاص الجزية عند فتح الاسكندرية، على أن يرد اليهم الأسرى، كتب عمر بن الخطاب الى ابن العاص بقبول الجزية، وتخيير الأسرى بين الاسلام والنصرانية.. وقد وصف موقف التخيير شاهدُ عيانٍ هو زياد بن جزء الزُّبيدي، قال: «فجمعنا ما في أيدينا من السبايا، واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيِّرهُ بين الاسلام وبين النصرانية، فإذا اختار الاسلام كبَّرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تُفتح القرية. قال: ثم نحوزه الينا. واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه رجل خرج منا اليهم.

قال: فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم.

وقد أُتي فيمن أُتينا به ـ بأبي مريم عبدالله بن عبدالرحمن، فوقفناه فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية ـ وأبوه وأمه وإخوته في النصارى ـ فاختار الاسلام فحزناه الينا، ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته، يجاذبوننا حتى شقّقوا عليه ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا»[2].

وهذه الحادثة تكشف عن مشاعر الصحابة، وتعلقهم بدينهم، ورغبتهم الصادقة في إسلام الناس، وإن سقطت الجزية عنهم، ثم هي تكشف عن جو الحرية الدينية، وعدم إجبار أحَدٍ على اعتناق الاسلام حتى مع القدرة عليهم.

ولم يكن طريق الاسلام في جيل الصحابة معبداً مفروشاً بالزهور، وخاصة في أول مراحل الدعوة بل كان محفوفاً بالأخطار، وكان الدخول فيه امتحاناً شاقاً لا تجتازه بنجاح إلاّ الهممُ الشامخةُ والنفوس العالية، التي حازت الايمان والتقوى والاخلاص والمجاهدة... مرَّ رجل بالمقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ فقال:

---

(١) البيهقي: السنن ٨/٢٠٧.

(٢) اريخ الطبري ٤/٢٢٧.

طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ!! فقال المقداد: ما يحمل أحدكم على أن يتمنّى محضراً غيَّبه الله عز وجل عنه. لا يدري لو شهده كيف يكون فيه! والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ - كبَّهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم - لم يجيبوه ولم يصدقوه! أولا تحمدون الله اذ أخرجكم الله عز وجل لا تعرفون الا ربكم مصدِّقين بما جاء به نبيكم عليه السلام، وقد كُفيتُم البلاء بغيركم؟! والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشدِّ حال بعث عليه نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل، وفرَّق بين الوالد وولده، حتى ان الرجل ليرى والده أو ولده أو خاله كافراً. وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للايمان، ليعلم أنه قد هلك من دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه - أي أقرباءه - في النار، وأنها للتي قال الله عز وجل: ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرةَ أعينٌ﴾.

وكان معظم الصحابة من الفقراء، وكانت الدولة الناشئة في المدينة المنورة لا تملك الأموال، فلا مطمعَ لمن يدخل في دين الله في نيل المال والجاه أو أي من أعراض الدنيا، ومن طريف الروايات التي تصور فقرهم وحالهم ما أخرجه البخاري في صحيحه عن الصحابي الجليل سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: كانت منا امرأة تجعل في مزرعة لها سِلْقاً، فكانت اذا كان يوم الجمعة تنزع أصول السِلق فتجعله في قِدْر، ثم تجعل قبضة من شعير تطحنه، فتكون أصول السِلق عَرْقَة - أي عظمه ولحمه -.

قال سهل: كنا ننصرف اليها من صلاة الجمعة فنسلم عليها، فتقرب ذلك الطعام الينا، فكنا نتمنّى يوم الجمعة لطعامها ذلك - وفي رواية: ليس فيها شحم ولا وَدَك، وكنا نفرح بيوم الجمعة»[1].

وقد تحمَّل الصحابة الكرام من الجوع والعطش والحرِّ والبرد والأذى، فصبروا على الامتحان، وآثروا العقيدة على نعيم الدنيا، فاستحقوا المكانة التي وصلوا

---

(١) المنذري: الترغيب والترهيب ١٧٣/٥.

اليها حيث خلدهم كتاب الله تعالى بما وصفهم به من عاطر الثناء، وحفظت لهم الأمة الاسلامية قدرهم على مدى الزمان.

لقد كان الصحابة يلتزمون بالبيعة لرسول الله ﷺ، ثم للخلفاء الراشدين من بعده، وكان للبيعة قيمة عالية فهي التزام حرٌ وتعاقدٌ بين الطرفين، وقد دلّلوا دائماً على صدق التزامهم فلبّوا داعي الجهاد وخاضوا غمار المعارك في أماكن نائية عن ديارهم، ودُفِنَ كثير منهم في أطراف الأرض ما بين كابل والقسطنطينية والقيروان وما عرفوا القعود عن الجهاد والحفاظ على الكرامة والذود عن العقيدة.

وبيعة الناس للخليفة تدل على أن الأمة هي مصدر السلطة، وأن السلطة ليست ثيوقراطية، وليست ممنوحة من الله لأحد من البشر، بل هي تعاقد بين المسلمين وحاكمهم على أن يطيعوه في العسر واليسر والمنشط والمكره، مقابل حفاظه على دين الله، وإنفاذه حكم الله، وحفظه للأمن، وتحقيقه لمصالح الرعية. فلا كهنوتَ في الاسلام ولا تفويض الهي، بل بيعة حرة يدرك الطرفان، الأمة والحاكم عمق معناها ومدى التزاماتها؛ ذلك العمق والالتزام النابعين من معنى الآية الكريمة: **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾**(١).

وما أدق تعبير عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين قال له عمير بن عطية الليثي ـ رضي الله عنه ـ: يا أمير المؤمنين ارفع يدك ـ رفعها الله ـ أبايعْكَ على سُنَّة الله ورسوله. فرفع عمر يده وضحك وقال: هي لنا عليكم ولكم علينا. فالتزام البيعة إذاً يشمل الراعي والرعية.

لقد خلد القرآن الكريم مواقف المسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار في آيات كثيرة. قال تعالى: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾**(٢).

---

(١) سورة الفتح، الآية ١٠.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٠.

والسابقون الأولون هم الذين صلّوا الى بيت المقدس أولاً ثم صلوا الى الكعبة بعد تحويل القبلة اليها، وهذا الرأي قال به سعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين، وهما من كبار التابعين. وتحويل القبلة الى الكعبة كان في السنة الثانية من الهجرة بعد ستّةَ عشرَ شهراً من قدومه ﷺ الى المدينة، فمن كان على الإسلام قبل هذا التاريخ فهو من السابقين الأولين.

إنَّ أولي السابقة تحمَّلوا المسؤولية في ظروف الشدة والخطر، فالمهاجرون ضحوا بالأهل والمال والديار، وهاجروا لنصرة عقيدتهم، والأنصار عرَّضوا مدينتهم للخطر، وآثروا العقيدة بالنفس والمال والأمن.

وقد تفاضل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حسب قدمهم في الاسلام وخدمتهم للعقيدة، فكان البدريون طبقة أولى فهم من السابقين الأولين، وكان من شهد أُحُداً طبقة ثانية، وكان من شهد الخندق طبقة ثالثة، ومن شهد بيعة الحديبية طبقة رابعة، ومن أسلم في ما قبل الفتح طبقة ومن أسلم بعد فتح مكة طبقة.

وروى البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استأذن الرسول ﷺ في أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة، وهو صحابي بدري، حاول أن يرسل خبر إعداد المسلمين لفتح مكة الى قريش، لكن الرسالة سقطت بيد المسلمين، واعترف حاطب بأنه أراد أن يحمي أهله بمكة من أذى قريش، وهنا نجد أن سابقة حاطب وشهوده بدراً تشفع له، فلا يأذن الرسول ﷺ لعمر بقتله بل يقول: **«إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلَّع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»**[1].

وقد اشتكى أحد عبيد حاطب بن أبي بلتعة عليه عند رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ليدخلنَّ حاطبُ النار، فقال رسول الله ﷺ: **«كذبتَ لا يدخلها إنه شهد بدراً والحديبية»**[2].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٥١٩/٢) وصحيح مسلم ١٩٤١/٤.
(٢) صحيح مسلم ١٩٤٢/٤. وكذبتَ تستعمل بمعنى أخطأتَ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**لن يدخل النار أحدُ شهد بدراً والحديبية**»[1].

وقد اختص عمر بن الخطاب أهلَ السابقة والخدمة للاسلام بعطاءٍ أوفر من الدولة، وهكذا قرن بين التكريم المعنوي والمادي لتمكين هؤلاء الرجال من العيش الكريم، ولتقوية نفوذهم في المجتمع، وتدعيم مركزهم في القيادة والتوجيه، وهي التفاتة تدلُّ على عبقرية أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ.

روى البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغاراً، والله ما يُنضِجون كُراعاً، ولا لهم زرعٌ ولا ضرعٌ، وخشيت أن تأكلهم الضبُعُ ـ أي السَنةُ المجدبة ـ وأنا بنت خفاف بن ايماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ.

فوقف معها عمر ولم يمضِ، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف الى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً، وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها بخِطامه ثم قال: اقتاديهِ، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرتَ لها.

فقال عمر: ثكِلتكَ أمُّك، والله اني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حِصناً زمناً فافتتحناه، ثم أصبحنا نستفيىءُ سهمانَنا فيه».

وقد تكرر ذلك من عمر ـ رضي الله عنه ـ، فقد قسَّم مروطاً (أكسية من صوف أو خزّ) بين نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيِّد، فقال بعض من حضر: يا أمير المؤمنين أعطِ هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك ـ يريدون أم كلثوم بنت علي ـ رضي الله عنه ـ وكانت زوجةً لعمر بن الخطاب.

فقال عمر: أم سُليط أحق به، فإنها ممن بايع رسول الله ﷺ وكانت تحمل للناس القِرَب يوم أُحد[2].

وهكذا،فإن تكريم الأبطال الذين يقدمون خدمات عظيمة للمجتمع انسحب

---

(١) صحيح مسلم ١٩٤٢/٤.

(٢) ابن الجوزي: مناقب عمر ٥٧.

على أبنائهم، وبذلك يعرف الناس جميعاً أن تضحياتهم لا تضيع في الدنيا ولا في الآخرة **﴿وما عند الله خير وأبقى﴾**.

ولا شك أن الاسلام جعل أتباعه يتطلعون الى ما عند الله من الأجر العظيم، الذي لا يعدله شيء من تكريم الدنيا مهما عظم، فقد صحّ أن أعرابياً شهد فتح خيبر أراد النبي ﷺ أثناء المعركة أن يقسم له قسْماً وكان غائباً، فلما حضر أعطوه ما قسم له، فجاء به الى النبي ﷺ فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمى ها هنا ـ وأشار الى حلقه ـ بسهم فأدخُلَ الجنة.

قال: إن تصدق الله يَصْدُقك.

فلبثوا قليلاً. ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفَّنه النبي ﷺ بجُبَّتِه وصلَّى عليه ودعا له فكان مما قال: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتل شهيداً، وأنا عليه شهيد**»[1].

وقد أثبت الأبطال المسلمون ترفعاً على الدنيا وما فيها، وشمخت نفوسهم الى الرضوان الأكبر، فعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: «والله الذي لا إله الا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية، أنه يريد الدنيا مع الآخرة»[2].

ولما قُدِم بسيف كسرى على عمر ومِنْطَقَتِه وزِبْرِجِهِ، قال عمر: إن أقواماً أدَّوا هذا لَذَوو أمانة.

فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: إنَّكَ عففتَ فعفَّت الرعية[3].

ومن أجل مظاهر تكريم الصحابة في الاسلام أنهم اعتبروا موضعَ قدوة وتأسٍ من بين المسلمين، فكتبت سيرهم وعرفت أخبارهم، وبلغت كتب التراجم التي خلدت ذكراهم عشرات الألوف من الكتب، فلم تعنَ أمة بتسجيل تراجم

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/٢٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٩.

(٣) المصدر السابق ٤/٢٠.

رجالاتها مثل عناية الأمة الاسلامية، وهذا هو السبب الذي جعل كتب التراجم أوسع موضوعات المكتبة العربية الاسلامية.

وكان العلماء قديماً وحديثاً يوجِّهون النشء الى النظر في سيرة الرسول ﷺ، وسير أصحابه الغر الميامين، لينشأوا على حب البطولة والأبطال، وليتأسوا بخلق أصحاب المروءة والشجاعة والكرم والصدق والعفاف والمعروف. وقد نبَّه القرآن الكريم الى ضرورة تحقيق هذا المنهج في الاقتداء بالصالحين فقال تعالى: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**[1]. والاقتداء بالرسول ﷺ شامل لمنهجه في مطالب الدين والدنيا لأنه لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى.

أما الاقتداء بالعظماء والصالحين من البشر فيكون في الجانب الذي تميزوا به، مما يتطابق مع أحكام الشرع ومقاصده، فيستفاد من تطبيقهم ذلك في حياتهم لتوضيح المعنى وإبراز موضع القدوة، مع ضرورة اعتبار بعض القواعد، ومنها أن الأفذاذ من الأبطال والصالحين لهم أخطاؤهم أيضاً، وكل يؤخذ منه ويرد عليه إلاّ المعصوم ﷺ، ومن هنا تظهر أهمية قاعدة «اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال» فمن المهم وضوح الحق وتميزه ومعرفة الباطل وتميزه، وقد قال الامام أحمد: «من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال».

والصحابة أنفسهم يتفاضلون في السابقة والجهاد والعلم بالقرآن والسنة والفقه، فمنهم البدريون والأُحديون وأصحاب الخندق ومسلمة ما قبل الفتح ومسلمة ما بعد الفتح، ولا شك أن أصحاب السابقة هؤلاء يمتازون بأنهم رموز الدعوة الاسلامية، ومثلها العليا، وكانت أعمالهم سوابق تُحتذى، كما أن النبي ﷺ نص على أن أعمال الخلفاء الراشدين سنّة تُحتذى، وسوابق يقاس عليها، وذلك في الحديث **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ»**[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٠.

(٢) سنن ابي داود ١٤/٥ حديث رقم ٤٦٠٧ وسنن الترمذي حديث رقم ٢٦٧٨ وقال: حسن صحيح. وسنن ابن ماجة حديث رقم ٤٢.

ونجد الآية الكريمة توجه المؤمنين الى اتباع أهل السابقة ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾.

ونجد الخليفة عمر بن الخطاب يختص أهل السابقة من البدريين بأعلى العطاء، وكان يدرك أن ترسيخ جذور هذه الفئة وتقويتها بالدعم المادي والأدبي يمكنها من القيام بدورها خير قيام، ويجعلها تتخلص من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، وبذلك تعين على ترسيخ القيم الاسلامية والحفاظ عليها، وتمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون أن تعيقها الحاجة، أو تستذلها المادة، أو تخيفها من قولة الحق.

إنَّ لكل مجتمع رموزاً وقادة يمثلون قيمه، ويوجهون الأمة نحوها، ورموز المجتمع الاسلامي الأول هم صحابة رسول الله ﷺ، وأفضلهم أهل السابقة، فقد محَّصتهم الفتن، وامتُحِنوا بالنفس والنفيس، فاسترخَصوا كل شيء من أجل رفع راية العقيدة الاسلامية.

هذا صهيب ـ رضي الله عنه ـ أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ، فتبعه نفر من قريش مشركون، فنزل فانتشل كنانته فقال: قد علمتم يا معشر قريش أني أرماكم رجلًا بسهم، وأيم الله لا تصلون اليَّ حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم شأنكم بعد ذلك، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي، قالوا: نعم. فتعاهدوا على ذلك فدلَّهم، فأنزل الله على رسوله القرآن ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾[1] حتى فرغ من الآية. فلما رأى النبي ﷺ صهيباً قال: ربح البيع يا أبا يحيى! ربح البيع يا أبا يحيى! وتلا عليه الآية[2].

وأمثال صهيب كثير عافوا الأرض والأهل والمال، وهاجروا بأنفسهم الى الله ورسوله، فكانوا مادة الاسلام ورجاله الأولين. وكانت الهجرة نصرةً لدين الله ودفعاً لفتنة الاقامة بين ظهرانَي المشركين، كذلك كانت بيعة الأنصار في العقبة

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

(٢) ابن سعد: الطبقات ١٦٢/٣ ـ ١٦٣. والحاكم: المستدرك ٣٩٨/٣، وصححه على شرط مسلم.

الثانية على النصرة، فقد مكث رسـول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع النـاس في منـازلهم عكاظ ومجنـة وفي المـواسم يقـول: **«من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟»** فلا يجيبه أحد يؤويه ولا ينصره، حتى ان الرجل ليخـرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قـومه وذوو رحمـه فيقولـون: احذر غـلام قريش لا يفتنك. حتى بعث الله اليه الأنصار فآووه وصدقوه ونصروه[1].

وأنفق الأنصار النفقة العظيمة، وواسوا المهاجـرين بأمـوالهم، وآثروهم عـلى أنفسهم حتى قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال ﷺ: **«لا ما أثنيتم عليهم ودعـوتم الله لهم»**[2].

وقـد استحق الأنصار وصف رجـال العقيـدة المخلصـين كـما قـال لهم ﷺ: **«إنكم مـا علمت تكثرون عنـد الفزع وتقلّون عنـد الطمـع»**. وتخليداً لمروءتهم وعفتهم وشهامتهم قال ﷺ: **«مـا يضر امرأة نـزلت بين بيتـين من الأنصار، أو نزلت بين أبويها»**[3].

وهكذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم يقـدم التضحيات الجسيمـة في سبيـل نصرة دين الله، فمكّن الله لهم في الأرض كـما وعـدهم ـ ووعـدُهُ الحقُّ ـ بقـوله تعـالى: ﴿**وَعَدَ الله الـذين آمنوا منكم وعملوا الصـالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**﴾[4].

وقد دلَّل التاريخ على نجاح التربية المحمدية للصحـابة رضـوان الله عليهم، فبرز منهم عظماء الاسلام من الخلفاء والولاة والقضاة والقـادة والعلماء والمربـين، وتمكنوا من ارساء قواعد العقيدة ومناهج الشريعة وأصول التربيـة وقيم الأخلاق

---

(١) الحاكم: المستدرك ٢/٦٢٥.

(٢) رواه الامـام أحمد بـاسنـاد صحيـح (مسنـد أحمـد ٣/٢٠٠ ـ ٢٠٤، وسنن الـترمـذي ٤/٦٥٣ حديث رقم ٢٤٨٧ وقال: صحيح حسن غريب.

(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ١٠/٤٠ وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٤) سورة النور، الآية ٥٥.

في المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية. فلما توفي رسول ﷺ ترك في الدنيا الرجال الذين رباهم على عينه، وقد ودعهم الوداع الأخير عندما أطل عليهم من حجرته صفوفاً منتظمةً خلف الصديق ـ رضي الله عنه ـ فابتسم ابتسامة الرضا والطمأنينة والثقة على مصير العقيدة في أيدي الصحابة الثقات.

وتتالت الأحداث الخطيرة بعد وفاته وعجم التاريخ عود الصحابة واختبر صلابة قناتهم التي لا تلين.. ارتد الأعراب خارج المدينة ومكة والطائف، وامتنعوا عن أداء الزكاة، ونصح بعض الصحابة أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن يدعهم يصلون ولا يؤدون الزكاة فقال: **«والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدونها الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»**[1]. فقاتل الاعرابَ حتى رجعوا الى الاسلام، وأعاد توحيد الدولة، ونظم حملات الجهاد لفتح العراق والشام.

وتوفي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وبايع الناس عمر بن الخطاب، فحرص الناس على الجهاد، وأتم فتح العراق وايران والشام ومصر، وأعاد تنظيم الجيش ورتب ديوان الجند وفرض الخراج على الأراضي المفتوحة عنوة، وعزز استقلال القضاة عن الولاة، وحقق قولة النبي ﷺ: **«لم أر عبقرياً يفري فريَه»**[2] وعزَّز مبدأ الشورى وطبقه في حياته وعند وفاته، وبذلك أكَّد على دور الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد، وصارت سيرته رمزاً للعدل المطلق على مدى التاريخ، ومات غيلة على يد أبي لؤلؤة المجوسي.

وهكذا كان دور عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب في إقامة صرح الاسلام، وتوسيع رقعة دولته، ودعاءِ الناس الى اعتناقه، وإقامة الشرع الحنيف وأحكامه بين أتباعه، وإعلاء راية الجهاد، ونشرِ العلم، وإشاعة الفقه وتولي الفتيا، وإطفاء الفتن، حتى ماتا شهيدين ـ كما بشرَّهما رسول الله ﷺ.

ورغم حداثة عهد العرب بالدولة الواحدة التي لم يعرفوها قبل الاسلام، فقد دامت دولة الاسلام بعد رسول الله ﷺ قروناً طويلة، مما يدل على عمق

---

(١) النسائي: سنن ٥/٥ ـ ٦.
(٢) صحيح البخاري ٤/١٩٨.

الأساس الذي بناه رسول الله ﷺ، وعلى نجاح تربيته للصحابة الذين تولوا الأمر من بعده.

لقد خرَّجت مدرسة القرآن جيلاً عظيماً في دينه، عظيماً في خلقه، عظيماً في جهاده، وحسن بلائه، وفتَّقت الأذهان والقرائح، وأنارت القلوبَ بوَهَج الايمان، والعقولَ برحيق القرآن، وأثبتت تاريخياً أنها قادرة على تحقيق إنسانية الانسان، والحفاظ على جوهره النقي، ومعدنه الأصيل، وفطرته السليمة، في حين أضاعت الايديولوجيات والفلسفات الوضعية الانسان وأحالته الى مسخ، فصادرت روحه وعقله وخلقه، وغرست التوحش والانتقام، ونمَّت أنيابه ومخالبه، ولا زالت مدرسة القرآن قادرة على إعادة الانسان الى انسانيته، عندما يرتشف من رحيق الكتاب والسنة، ويقتدي بجيل الصحابة رضوان الله عليهم.



فضل الهجرة

لقد بيّن القرآن في آيات كثيرة فضل الهجرة في سبيل الله، ومكانة المهاجرين الأولين الذين خلّد الله ذكرهم، وأعلى مكانهم، وبيّن عظيم أجرهم. قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسرة﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾**[4].

وكانت الهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة دليلاً على ما للعقيدة من تأثير بالغ، يقوى على فصم روابط الانسان بالمكان؛ أرضاً ومالاً ومصالحَ

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩٥.
(٣) سورة التوبة، الآية ١١٧.
(٤) سورة التوبة، الآية ١٠٠.

وأهلاً، فقد ترك المهاجرون كل ذلك وراءهم عندما اقتضت مصلحة العقيدة ذلك، وكانوا يرسمون مستقبلاً وضيئاً لأمة الاسلام، فبهجرتهم وصبرهم وجهادهم وتضحياتهم قامت دولة الاسلام الأولى على أرض المدينة المباركة.

ومنذ ذلك الحين قبل أربعة عشر قرناً استمرت دولة الاسلام تتوسع حتى شملت مساحة واسعة من قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا. صبغتها جميعاً بصبغة العقيدة، وأظلتها بروح الاسلام، وحضارته الشامخة، وشريعته السمحاء، فوحدت قلوب الناس بالمعتقد، وقانونَهم ونظامَهم بالشرع، وسلوكَهم ووجهتَهم بأهداف الاسلام في تحرير الانسان من الشرك والظلم والتيه. وكانت اللغة العربية أداة الاتصال بين جميع المسلمين من سائر الأجناس والألوان، إذ ما ان يعتنق الانسان الاسلام حتى يسعى لتعلمها ومعرفة كتاب ربه وحديث نبيه بواسطتها.

وهكذا أسهم الجميع في بناء صرح أدب عربي اسلامي رفيع. كما أسهموا في فهم معاني القرآن والسنة وأحكامها، ووضع قواعد الاستنباط منها، فنمت الثروة الفقهية الهائلة التي هي مجهود عقول اعتصرها أصحابها للوصول الى حكم الله في كل ما يستجد في الحياة من أحداث.

وكما خلد القرآن ذكر المهاجرين الأولين فقد خلد ذكر الأنصار الذين آووهم وشاركوهم بيوتهم وأموالهم، وعرّضوا أمن مدينتهم للخطر في سبيل العقيدة التي اعتنقوها والدين الذي آمنوا به. قال تعالى: ﴿والذين تبوَّؤا الدار والايمان من قبلهم يُحبون من هاجر اليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام في بيان فضل الهجرة ومكانة النصرة «ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار»[2].

وسميت المدينة بـ «دار الهجرة والسنة» كما في صحيح البخاري. وصارت الهجرة اليها من مكة أولاً ثم من سائر الأنحاء الأخرى التي انتشر منها

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) صحيح البخاري ٢٢٢/٤ ط. استانبول.

الاسلام، وكانت الآيات القرآنية تحث على الهجرة بقوة وترتب عليها من الفضل العظيم، ورجاء رحمة الله، وتكفير السيئات، وتوبة الله تعالى على المهاجرين، ورضا الله عنهم، ودخول الجنة . . . هذا في الآخرة، وأما التقويم في الدنيا فقد اعتبرت الهجرة من أفضل الأعمال، وأولاها برفع مرتبة المسلم معنوياً، ثم صار لها اعتبار مادي في العطاء السنوي منذ أن نظم عمر - رضي الله عنه - العطاء فاعتبر السابقة في الاسلام سبباً في زيادة عطاء المسلم السنوي، وكان المراد من الحث المستمر على الهجرة توفير القوة البشرية اللازمة للدفاع عن المدينة المنورة، لذلك لم تتوقف الهجرة الا بعد فتح مكة المكرمة حيث قال الرسول ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، واذا استنفرتم فانفروا**»[1]. أما قبل فتح مكة فكانت الآيات القرآنية ترتب حقوقاً خاصة للمهاجرين، وتحدد من حقوق المسلمين اذا لم يهاجروا. قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر الّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير**﴾[2].

ولم يقبل القرآن عذراً للقادرين على الهجرة من أرضهم ممن يلاقون العنت في المحافظة على دينهم، فأرض الله واسعة فيمكنهم الهجرة، ولا ينبغي لهم الاستكانة للجبابرة قال تعالى: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم. قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً * الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً**﴾[3].

ووعد الله تعالى المهاجرين بالرزق والسعة وثبوت أجرهم اذا توفوا في الهجرة

---

(١) متفق عليه (صحيح البخاري ٣/٢٠٠ وصحيح مسلم ٣/١٤٨٧ حديث رقم ١٣٥٣).
(٢) سورة الأنفال، الآية ٧٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٩٧ ـ ٩٩.

فقال: ﴿ومن يُهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَاغَـماً كثيراً وسَعَةً، ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقع أجرُهُ على الله، وكـان الله غفوراً رحيماً﴾[1].

وتوافر النيـة الخالصـة لازم للهجرة الصحيحـة كما هـو شرط في كل الأعـمال الصالحة، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنمـا لكل امـرىء ما نوى، فمن كـانت هجرتـه الى الله ورسولـه فهجرتـه الى الله ورسولـه، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه»[2].

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بامتحان النساء المهـاجرات بعـد صلح الحـديبية، فمن تبـين أنها هاجـرت بسبب العقيدة فـإنها لا تعاد الى أهلهـا قـال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هُنَّ حِل لهم ولا هم يحلون لهن، وآتوهم ما انفقوا﴾[3].

وكانت البيعة التي يبايع بها المؤمنون رسول الله ﷺ تشتمل على الهجرة، حتى كان فتح مكة فأبى رسول الله ﷺ أن يبايع أحداً على الهجرة لأنها انقطعت.

قال مجاشع: «أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت يا رسول الله جئتـك بأخي لتبايعه على الهجـرة. قال: ذهب أهـل الهجرة بمـا فيها، فقلت: عـلى أي شيء تبايعه؟ قال: أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد»[4].

وعن مجـاهد قـال: قلت لابن عمر رضي الله عنهـما: إني أريد أن أهـاجر الى الشام قال: لا هجرة ولكن جهاد، فـانطلق فـاعرض نفسـك فإن وجـدت شيئاً والا رجعت»[5].

وقـد بيّن رسـول الله ﷺ أن مهاجـرة الحبشة الـذين تركـوا مكـة في ظـروف

---

(١) سورة الأنفال، الآية ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/١.

(٣) سورة الممتحنة، الآية ١٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ٩٧/٥ (ط. استانبول)

(٥) رواه البخاري في صحيحه ٩٧/٥.

الاضطهاد بأمر الرسول ﷺ فهاجروا الى الحبشة ثم هاجروا منها حين افتتح خيبر الى المدينة المنورة بيّن أن لهم هجرتين، الهجرة الى المدينة والهجرة الى الحبشة، فقال ﷺ: **«لكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان»**[1].

إن عالم الاسلام اليوم لا بد أن يقدر للعقيدة قدرها، ويعمل على إعادة بناء صرح العقيدة والحضارة من جديد، ويهجر المعصية الى الطاعة، والفرقة الى الوحدة، واليأس الى الأمل، والكسل الى العمل، والذلّ الى العز، والضعف الى القوة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤/٢٦٤.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، نشر دار المعرفة، بيروت.

الأدب المفرد، للبخاري، ط ٢، نشر عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).

إرواء الغليل، للألباني، ط ١، نشر المكتب الاسلامي، بيروت ـ ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

الله يتجلى في عصر العلم.

إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني (طبع بحاشية الإتقان في علوم القرآن للسيوطي).

أعلام الحديث، للخطابي، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

الإنسان وقواه الخفية، لكولن ولسن.

البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم والدكتور علي نجيب عطوي وآخرين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).

الترغيب والترهيب، للمنذري، بعناية محمد مصطفى عمارة، نشر دار الفكر، بيروت ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م).

تفسير ابن أبي حاتم (مخطوط).

تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) ط ٣، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

تفسير ابن كثير، بتصحيح خليل الميس، نشر دار القلم، بيروت.

الدر المنثور، للسيوطي، نشر محمد أمين دمج ـ بيروت.

الرسول في مكة، لأكرم العمري.

الروض الأنف، للسهيلي، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، نشر دار الكتب الحديثة.
زاد المعاد، لابن القيم.
سنن أبي داود، بعناية عزت عبيد الدّعاس وعادل السيد، دار الحديث، بيروت - ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م).
سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
سنن الدارمي، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبعة الاعتدال، دمشق - ١٣٤٩ هـ.
السنن الكبرى، للبيهقي، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٤٤ هـ.
سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر.
سنن النسائي (المجتبى) ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م).
سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - ١٣٧٥ هـ.
سيرة الرسول، لمحمد عزة دروزة، بعناية عبدالله بن ابراهيم الأنصاري - قطر.
سيرة الرسول في تصورات الغربيين، لجوستاف بفانمولر ترجمة د. محمد حمدي زقزوق.
صحيح البخاري، نشر المكتبة الإسلامية باستانبول.
صحيح سنن ابن ماجة، للألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج.
صحيح سنن الترمذي، للألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول اللخيج.
صحيح مسلم، ط. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر - ١٩٥٦ م.
طبقات ابن سعد، ٨ أجزاء، ط. دار بيروت ودار صادر، بيروت - ١٩٥٨ م.
العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون، نشرة دار القلم، بيروت - ١٩٨٦ م.
كشف الأستار في زوائد مسند البزار، للهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر مؤسسة الرسالة.
الفتاوى، لابن تيمية، ١٣ مجلداً، ط ١، المطبعة الخيرية بالقاهرة - ١٣٢٩ هـ.
فتح الباري، لإبن حجر العسقلاني، ط. المطبعة الخيرية، القاهرة (١٣١٩ - ١٣٢٩ هـ).

في طريق الميثولوجية عند العرب، لمحمود سليم الحوت، دار النهضة للنشر ـ بيروت ١٩٧٩ م.
مجمع البحرين في زوائد المعجمين، للهيثمي (مخطوط).
مجمع الزوائد، للهيثمي، ط. مصر.
مختصر الشمائل المحمدية للترمذي، للألباني، ط ١، نشر المكتبة الإسلامية ـ الأردن ـ ١٤٠٥ هـ.
المستدرك، للحاكم النيسابوري، ط. حيدر آباد الدكن بالهند ـ ١٣٤١ هـ.
مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ١، دار القلم، بيروت ـ ١٣٩٠ هـ.
مناقب عمر، لابن الجوزي، تحقيق دكتورة زينب ابراهيم القاروط، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م).
موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان، للهيثمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
النبوات، لابن تيمية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م).

فهرس موضوعات الكتاب